

الجنة في ظلال السيوف

الجنة في ظلال السيوف

حبيب جاماتي

الطبعة: ٢٠٢٣



العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

جاماتي ، حبيب - الجنة في ظلال السيوف

– الجيزة – أزهى ،٢٠٢٢

١٩٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٠ – ٤ – ٨٦٣٨٢ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٥١٠٢ / ٢٠٢٢

الجنة في ظلال السيوف

حبيب جاماتي

إهداء

إلى العاملين في حقل المحبة والآخاء، بصدق وأمانة وإخلاص، من أجل إحلال السلام بين الشعوب، وإقامة التعاون بين الدول، باستئصال أسباب الحروب وعواملها، وإعادة العدالة إلى نصابها، والحقوق إلى أصحابها، أهدي هذه الأقاصيص التاريخية، التي وقعت حوادثها في عصور تختلف عن عصرنا، طبع فيها الصراع بين الأمم بطابع الدين، أو اتخذ فيه الدين أداة خدمة السياسة، فاقتتل الناس في غماره وتناحروا سعياً إلى الجنة في ظلال السيوف!

المؤلف

تصدير

بين دفتي هذا الكتاب، عشرون قصة ،وقد اخترت لها هذا العنوان: "الجنة في ظلال السيوف!" لأن القصص التي انطوت عليها تروي طائفة من الوقائع استقيت تفاصيلها من هامش التاريخ، في نطاق الحروب التي كانت العاطفة الدينية محورها، وكان العامل الديني سببها أو محركها أو هدفها، أو ستاراً لها، يخفي وراءه ما يخفيه من عوامل أخرى، اقتصادية، أو سياسية أو استعمارية. قبل أن يطلق على "الاستعمار" هذا الاسم!

في بعض تلك الحروب التي طبعت بطابع الدين، كانت الفكرة الدينية صافية، وكانت العاطفة الدينية خالية من الشوائب. وفي بعضها كانت الفكرة والعاطفة غير صافيتين وغير خالصتين من العيوب.

ففي خلال الحروب الصليبية، مثلاً، لم يجد الصليبيون النصارى القادمون من الغرب، حلفاء لهم بين الروم النصارى أصحاب الدولة بيزنطة. بل حارب كل فريق من الاثنين الفريق الآخر، في حين أن المسلمين في الشرق كانوا يحاربون الفريقين معاً. وفي الوقت الذي كان فيه العرب المسلمون في الشرق يقاومون الغزو الصليبي خلال مائتي سنة كان عرب الأندلس المسلمون في الغرب يتحالفون مع جيراهم النصارى ويتخلفون

عن نجدة إخوانهم في الدين. وكان الترك والتتر المسلمون يتسابقون لانتزاع الشرق الأدنى من أصحابه العرب المسلمين. وفي أوائل القرن الميلادي الثالث عشر، تحولت الحملة الصليبية القادمة من الغرب بطريق البر عن طريقها إلى سورية، فاحتلت القسطنطينية وأقامت فيها دولة مسيحية لاتينية على أنقاض الدولة المسيحية الرومية.

وإذا كان فريق من نصارى الشرق قد انضموا إلى الروم في مقاومة الفتح العربي الإسلامي في مطلع انطلاقه، فإن فريقاً آخر من أولئك النصارى، وبخاصة العرب منهم قد انضموا إلى الغزاة القادمين من الجزيرة، لمحاربة الروم، كان هذا الفريق مدفوعاً بالعاطفة القومية، وكان ذاك الفريق مدفوعاً بالعاطفة الدينية.

وقد تكررت هذه الظاهرة أكثر من مرة فيما بعد، خلال الحملات الصليبية المتتابعة، فأصغى فريق من نصارى الشرق إلى صوت الدين، دون نداء القومية، وأصغى فريق آخر إلى صوت القومية دون نداء الدين!

لقد أصبح كل ذلك صفحة من صفحات الماضي. وأصبحت الحروب الدينية في ذمة التاريخ..

وفي هذه الأقاصيص، أمثلة من هذا القبيل، تدعو إلى التفكير، في هذا العصر الذي نعيش فيه، عصر النهضة والبعث والانطلاق والتحرر..

فالقومية العربية تسير إلى الأمام في موكبها الرائع، وقد صهرت في بوتقها الواحدة، العناصر والأديان والمذاهب والطوائف، بعد أن تحررت أوطان العرب في المشرق والمغرب من الحكم الأجنبي وخلعت نيره. سواء

أكان ذلك الغريب تركياً مسلماً حط عليها بجوره حقبة من الدهر باسم الدين، أم غريباً مسيحياً تحكم في مصيرها، واستأثر بخيراتها، واستغل مواردها، مدفوعاً بعامل المصلحة حيناً، وحيناً آخر بعامل مزدوج تختلط فيه السياسة بالدين!

حبيب جاماتي
القاهرة
يونيو – حزيران ١٩٦٢

دراهم ودنانير



كيف ومتى صدرت العملة العربية الأولى وعليها كلمتا:
"الله صمد.." ولأي غرض استخدمت للمرة الأولى؟

سر بسلامة الله وتوفيق من عنده يا مُحَمَّد!.، وإنني أكرر توصيتي إليك، وهي أن تدعو الروم المعتدين إلى حقن الدماء، قبل أن يلتحم الجيشان في حرب لا يعلم غير الله مدى شدتها وعدد ضحاياها.. وإذا ظلوا على عنادهم، فقاتلهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وارفع على سنان الرمح، في طليعة جيشك وثيقة المعاهدة التي بيننا وبينهم، والتي مزقوها وخانوا نصوصها!

بهذه العبارات ودع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أخاه مُحَمَّد بن مروان، في أطراف غوطة الشام، يوم خرج منها عند الفجر في طريقه إلى حدود الدولة الشمالية ليتولى قيادة الجيش العربي المكلف بحراستها، ورد الجيش الرومي الزاحف في اتجاهها، بقيادة الامبراطور جستنيانوس الثاني.

سبب تلك الحرب التي أطلقها الروم من عقالها، إقدام الخليفة على صك الدنانير والدراهم ونقشها باللغة العربية للمرة الأولى. والدافع إلى ذلك العدوان ثورة الحقد وفورة الكبرياء والصلف في صدر الامبراطور.

كان العرب في الجاهلية، وظلوا بعد الإسلام، في عهد الخلفاء الراشدين والأربعة الأولين من خلفاء بني أمية، يتعاملون في داخل حدود دولتهم الشاسعة، ومع جيرانهم من الشعوب الأخرى، بالنقد الأجنبي، المنقوش بإحدى اللغتين الفارسية أو الرومية. ولما تولى عبد الملك بن مروان العرش في سنة ٦٥ من الهجرة، الموافقة لسنة ٦٨٤ من الميلاد، كان العرب في حرب مع الروم، وعز على الخليفة أن تظل الدولة محرومة من نقد خاص بها، وقرر أن يعالج الأمر بما يقتضيه من حزم وعزم.

وفي سنة ٧٠ الهجرية — ٦٨٩ الميلادية — أنهى الحرب وصالح الروم على أن يؤدي للإمبراطور ألف دينار في الأسبوع، تعويضاً له عن تنازله عن السيادة، على رقعة طويلة من الأرض الممتدة على طول الحدود بين الدولتين.

واحترم الطرفان ما نصت عليه معاهدة الصلح. ومرت أعوام ساد فيها السلام والوئام..

ثم تغيرت الحالة فجأة..

في سنة ٧٣ الهجرية — ٦٩٣ الميلادية — أنشأ عبد الملك بن مروان داراً لصك العملة، وأصدر الدنانير الذهبية والدراهم النحاسية، منقوشة باللغة العربية، وتحمل كلمتي: "الله صمد.".

وفي تلك السنة، أرسل الخليفة إلى القيصر قيمة التعويض بالدنانير العربية بدل الدنانير الرومية، فرفض جستنيانوس الثاني قبولها، ونقض المعاهدة، وأمر جيشه بالزحف، فاجتاز ثلاثون ألفاً من المرتزقة الصقالية

حدود قيليقية، بقيادة أسطفان الهنغاري، ورابطوا عند مدينة سوبسطة – وهي اليوم "سيواس" من أعمال تركيا – ولحق بهم الامبراطور نفسه، على رأس فرقة الحرس الخاص!

فوجئ الخليفة بهذا العدوان، وأسرع فاتخذ للأمر عدته، ووجه إلى الحدود جزءاً من حاميات المدن، وعهد بالقيادة إلى أخيه مُحَمَّد بن مروان، فخرج من دمشق على رأس قوة من الفرسان، وجد في السير إلى موطن الخطر، بعد أن وعد الخليفة بأن يعمل بنصائحه.

ضرب الجيش العربي مضاربه على مقربة من سوبسطة. في بقعة من الأرض اختارها مُحَمَّد بن مروان، تصلح قاعدة للهجوم أو معقلاً للدفاع، حسب مقتضيات الحال، وراح القائد المحنك برسم خطة المعركة المنتظرة، حاسباً لكل أمر حسابه..

من ذلك المكان، كان يرى من بعيد خيام المعسكر الرومي والنيران الموقدة حولها في أثناء الليل.. ويستدل منها على أن الروم يفوقون بكثرة عددهم، ووفرة الخيول لديهم..

ولما اكتمل حشد الكتائب العربية في اليوم الثالث من وصول الطليعة إلى مشارف سويسطة، دعا مُحَمَّد بن مروان معاونيه المقربين إلى مجلس عقده في خيمته، للتداول معهم، والاستنارة بآرائهم.

وافقوا على الخطة التي رسمها، وتعهدوا له بتنفيذها، وعرف كل واحد منهم ما هي المهمة الملقاة على عاتقه، قبل المعركة وفي خلالها ومن بعدها.

وقبل أن يتفرق المجتمعون، دخل حاجب وأخبر القائد العام بأن ستة

رجال وثلاث نساء وصلوا إلى المعسكر قادمين من بلاد العدو وأنهم يلحون في طلب المثول بين يديه.

وقال الحاجب:

-لقد جردناهم من سلاحهم يا مولاي، وفتشناهم بدقة، تجنباً لكل مفاجأة.

فأمر مُحَمَّد بن مروان بإحضارهم إلى الخيمة، وطلب من معاونيه أن يبقوا معه، ليعرفوا مثله ماذا يريد أولئك الأغراب.

تكلمت باسمهم واحدة من النساء الثلاث، بلغة عربية سليمة، فروت للقائد العربي قصتهم جميعاً، والدافع إلى مجيئهم إلى المعسكر.

التسعة ينتمون إلى ثلاث أسر من نصارى سورية الغساسنة العرب نزح أفرادها إلى بيزنطة قبل الفتح العربي... فتزاوجوا، وأنجبوا، ومات من أولئك المهاجرين من مات، وبقي منهم التسعة على قيد الحياة.

كلهم مرتبطون بعضهم ببعض بأوامر القربى والرحم. وأصغرهم سناً الفتاة التي تكلمت باسمهم، "هند" ابنة الفضل بن سيار.

رفضت أن تتزوج ضابطاً من ضباط الحرس الإمبراطوري، فخطفها وقتل أباها وأمها وذهب بها إلى داره بجوار القصر. وكلنها انتقمت لوالديها من القاتل لما هم بإخضاعها لمراده، فذبحته بيدها، وهربت من الدار، ولجأت إلى أقاربها الذين قرروا الرحيل معها عائدين إلى وطنهم وقومهم.

وختمت الفتاة روايتها المثيرة قائلة:

- والآن أيها القائد العظيم، ترانا تسعة رجال ونساء بين يديك، وهم البقية الباقية من أبناء الأسر الثلاث وبناتها.. جئنا نبغي الأمان والاطمئنان في البلد الذي منه ذهب آباؤنا وأجدادنا، وقد انتقل من حكم الروم إلى حكم العرب. ولكننا نتوق - قبل أن نبلغ مرابع الغساسنة - إلى الاشتراك معكم في قتال الروم. سعياً وراء ثأر نرى أن ما تحقق منه بقتل الضابط الباغي، ليس كافياً لشفاء الغليل!

صافح مُحَمَّد بن مروان الوافدين عليه من وراء الحدود واحداً واحداً، وواحدة واحدة، وهنأهم على نجاتهم من نقمة الروم، ورحب بهم ضيوفاً عليه، وتمنى لهم أن يحققوا ثأرهم كاملاً في حومة المعركة، إذا ما دار القتال بين جيشه وجيش جستنيانوس.

عملاً برغبة الخليفة، أوفد مُحَمَّد بن مروان ثلاثة رسل إلى القيصر لدعوته باسمه إلى حقن الدماء واحترام المواثيق والعمل بنصوص المعاهدة المعقودة بين الطرفين..

لكن جستنيانوس الثاني، بعد أن استمع إلى ما قاله له الرسل باسم خصمه العربي، طردهم من حضرته، وأصدر أمامهم أوامره إلى قواد جيشه بأن يبادروا العرب ببدء القتال..

وصنع مُحَمَّد بن مروان ما درج العرب على صنعه في مثل هذه الظروف والأحوال: جاء بالمعاهدة المكتوبة، وعليها توقيع الخليفة وتوقيع الامبراطور، وعلقها في رأس رمح رفعه أقدم حملة الأعلام في مقدمة الجيش..

ومشى إلى المعركة..

وارتجت الأرض تحت سنابك الخيل، وعبق الجو بصيحات المقاتلين المختلطة بالغبار المنتشر في وهج الشمس..

وتساقط الفرسان صرعى في جوانب الميدان!

وكان مُحَمَّد بن مروان في الطليعة، يحث رجاله على القتال. وحوله رهط من خيرة الرماة، بينهم النساء الثلاث والرجال الستة، القادمون من بلاد الروم.

وتمايلت صفوف العرب، وامتد الاضطراب في كتائبهم. فجيش الروم يفوق أضعاف عددهم، والعدد يغلب الشجاعة في كثير من المعارك!

تشاور مُحَمَّد بن مروان مع قواد الجيش في حومة الوغى. وفكروا في التذرع بالحيلة، لمعالجة التفاوت في العدد بينهم وبين العدو..

واخترقت الصفوف هند ابنة الفضل. واقتربت بجرأة من القائد الحائر، وقالت بلهجة تنم عن الاقتناع بما تقول:

أيها القائد... علمت أن الفرسان الصقالبة المرتزقة، في جيش الامبراطور، يقودهم اسطفان الهنغاري، وهذا الزعيم الذي يأتمر الصقالبة والهنغاريون بأمره، ويسيرون خلفه إلى حيث يريد، بلا تردد ولا سؤال، على خلاف مع جستنيانوس بسبب الأجور التي يدفعها الامبراطور لرجاله. وبالمال يمكنك أن تجتذب هذا القائد إلى صفك لأنه لا يحارب من أجل وطن ولا من أجل دين، بل من أجل الذهب الذي يتقاضاه ويوزعه على

رجاله! فجرب حظك معه، وابعث إليه بحفنة من الدنانير الذهبية التي رفض قيصر قبولها من الخليفة، وأعلن عليكم الحرب بسببها.

الفكرة رائعة!..

لم يتردد مُحَمَّد بن مروان في تطبيقها. فنادى حامل المال في جيشه ونزع جعبة سهامه من كتفه وسحب منها النبال، وملأ الجعبة ذهباً وهاجاً وأرسلها في حال مع رسولين إلى اسطفان الهنغاري، في خلال المعركة!

وكان المذهب العربي فعله في نفس القائد الهنغاري، الذي كان يعتمد عليه الامبراطور الرومي لإحراز النصر!

وما هي غير ساعة أو أقل، حتى تحركت كتائب المرتزقة الصقالبة، وتخلت عن قيصر وجيشه، وانضمت إلى مُحَمَّد بن مروان ورجاله...

عشرون ألفاً من الفرسان، أغراهم المال فانتقلوا من أجله وبفعله الساحر، من صف إلى صف، ومن جيش إلى جيش!

وفقد الامبراطور صوابه، وانطلق يشتم ويلعن، ولكن الشتائم واللعنات ما كانت في يوم من الأيام من أسلحة القتال الماضية، وأسباب النصر في الميادين..

وهرب جستنيانوس الثاني، واندفع جيشه وراءه طالباً النجاة في الجبال والوديان...

ولم يلحق به مُحَمَّد بن مروان! فقد أحرز النصر، وأرغم العدو على العودة على أعقابه إلى ما وراء الحدود وهذا كل ما كان الخليفة عبد الملك

بن مروان يريده منه!

وعرفت تلك المعركة في التاريخ بمعركة سوبسطة، أو معركة قيصرية على السواء.

وعاد مُحَّد بن مروان إلى دمشق. وروى للخليفة ما حدث، فأمر عبد الملك بأن يخير الصقالبة الذين تخلوا عن الروم بين أمرين: أما العودة إلى بلادهم، وأما البقاء في سورية...

فاختاروا البقاء جميعهم!

ووزعت عليهم الأراضي مكافأة لهم على ما فعلوا، واستقروا في أنطاكية وعلى الساحل السوري وفي جزيرة قبرص وسهول حوران..

أما جستنيانوس الثاني، فقد انتقم منهم، لأنهم خانوه، بأن قبض على نسائهم وأطفالهم، الباقين في بلاد الروم، وقتلهم جميعاً غرقاً، بأن أمر زبانيته بإلقائهم في بحر مرمرة، من فوق الصخور، بمدينة نيقوميديا، وهي اليوم "أزميت".

ولم يصب أحد في المعركة من التسعة الهاربين من بيزنطة. وقد اقطعهم الخليفة أرضاً في غوطة الشام، فعاشوا في هناء واطمئنان، في البلد الذي نزحت عنه من قبل أسرهم الثلاث..

وألغت معركة قيصرية معاهدة الصداقة بين العرب والروم. فانقطع الخليفة عن دفع التعويض الأسبوعي إلى قيصر!

وراجت الدنانير والدراهم العربية، وحلت مع الزمن محل الدنانير

والدراهم الفارسية والرومية.

وحكم عبد الملك بن مروان مدة إحدى وعشرين سنة، أوسع إمبراطورية عرفها التاريخ! ومات في سنة ٨٧ الهجرية، الموافقة لسنة ٧٠٥ الميلادية، في الستين من العمر.

في حمى سيف الدولة



لكل امرئ من دهره ما تعودا
وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

"المتنبي"

كان لابد أن تنتهي تلك الثورة العاطفية بهرب الفتاة التي أضرمت نارها في الصدور، فهربت "دومينا" مع حبيبها "درماس" من مدينة بيزنطة تاركة فيها خطيبها "قسطنطين" يحرق أسنانه من الغيظ، ويفكر في اللحاق بها، وإعادتها إلى كنفه، والانتقام من غريمه الذي خطفها منه!

كان أبوها "دوميسيوس" ضابطاً صغيراً بجيش الروم في عاصمة الإمبراطورية البيزنطية. وأمها نصرانية من حلب. وأحبها قسطنطين ابن القائد المغوار "برداس فوكاس" الذي يعده مواطنوه مفخرة من مفاخرهم، وعماداً يسند الإمبراطورية في حروبها مع جيرانها، والذي لا يرى بعين الرضا ترعرع عاطفة الحب بين ابنه قسطنطين والفتاة ابنة الضابط الصغير. لأنه يريد لابنه زوجة من بنات الأسر العريقة في الحسب والنسب. وكانت الفتاة نفسها لا تميل إلى الشاب الذي كلف بها، ولا تبادله حباً بحب، ولكن أباها دوميسيوس كان يضغط على إرادتها، ويلح عليها بأن ترضى بابن القائد

الكبير زوجاً لها، لأن هذه المصاهرة تجلب لأسرة الفتاة الجاه والمال. ولكن دومينا كانت تصر على الرفض، لأنها تحب من ناحيتها شاباً غير قسطنطين، وهي لا تستوحي غير قلبها في تقدير مصيرها، فالجاه والمال لا يستهوياها، والسعادة في عرفها محصورة في الحب وحده.

أقنعت أم قسطنطين زوجها برداس بأن يكف عن معارضته، ويترك لولدهما حرية اختيار المرأة التي يريدها رفيقة حياته، كما فعلا هما من قبل، فنزل الرجل على إرادة زوجته.

وفي اليوم الذي حددت فيه الأسرتان، أسرة القائد الكبير، وأسرة الضابط الصغير، موعداً لعقد القران بين الشاب والفتاة، حددت دومينا من جهتها، وبالاتفاق مع حبيبها درماس، موعداً للهرب من بيزنطة، ومحاولة الوصول إلى حلب، موطن أمها التي ماتت ودومينا في سنة الرضاعة.

ووافق درماس على هذه الخطة، رغبة منه في الاحتفاظ بحبيبته، ولأن له في حلب أصدقاء وعملاء من عرب غسان النصارى مثله، يعيشون هانئين مطمئنين في حمى الأمير سيف الدولة بن حمدان، ويزاولون التجارة في حرية وأمان، بين المدينة الزاهرة، وغيرها من المدن التابعة للروم وللعرب على السواء.

وخرج الحبيبان من المدينة ليلاً، وانطلقا على حصانين كان أصدقاء درماس قد أعدوهما لهذا الغرض، وابتعدا مسرعين نحو هضاب الأناضول بينما كان المدعوون يتوافدون على قصر برداس فوكاس، والد العريس حيث فاجأهم الخبر الغريب: العروس هربت مع حبيبها! أراد قسطنطين أن

يلحق بالهاربين لكن أباه أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة، وأطلق في أثرهما جماعة من فرسانه ولكنهم فشلوا في العثور عليهما، وعادوا بعد بضعة أسابيع ليقولوا أن القرويين في الجبال وفروا للشاب والفتاة وسائل التخفي، ومكنوهما من الابتعاد عن السبل المطروقة، وعلموا منهم أنهما يقصدان إلى سورية، وينويان الالتجاء إلى عاصمة الحمدانيين.

كانت الصدمة قاسية على قسطنطين، جرحت كبرياءه، وأدمنت قلبه، فعول على الانتقام من الخطيبة الخائنة، ومن الغريم المنتصر..

كانت حلب الشهباء في ذلك الوقت محط الأنظار ومقصد الرواد بلغت أقصى حدود الازدهار، وأوج العز والمجد والشهرة، في عهد أميرها الهمام. أسواقها تعج بالسلع وبالتجارة، ومجالسها تجمع بين رجال العلم والأدب والفن، وجيشها يحرس التخوم والثغور، وينقل رايات الحمدانيين المظفرة الخفاقة من مكان إلى مكان. وصاحب الإمارة فيها، سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي، يحكم بالعدل والقسطاس. يقود الكتائب إلى النصر في أيام الحرب، وينصرف إلى حماية الحركة الفكرية في أيام السلم ويغدق المال بلا حساب على النابغين الذين سجلوا أعماله نثراً، أو أشادوا بها شعراً، وكان قد تولى الحكم في سنة ٣٣٣ للهجرة، الموافقة لسنة ٩٤٤ للميلاد.

إلى تلك المدينة، وإلى حمى هذا الأمير، لجأ درماس الغساني ورفيقته في الهرب، دومينا الرومية، فأكرم سيف الدولة وفادتهما، وشملهما بحمايته، وسهل لهما الاتصال بأصدقاء الشاب وبأقارب الفتاة من عائلة أمها

الحلبية وبين أولئك الأقارب والأصدقاء، احتفل درماس ودومينا بقرانهما، فأصبحت الحبيبة حليلة، وأصبح الحبيب زوجاً حل بجانب الفتاة الهاربة محل الخطيب الذي أحبها وكرهته.

وكان الحمدانيون في خلاف دائم مع الروم، تتخلله المعارك والمهادنات فتارة يغزو العرب أرض الإمبراطورية الشاسعة، وتارة يغزو الروم أرض الإمارة الصغيرة، والنصر يضحك يوماً لهؤلاء ويوماً لأولئك...

وما مرت شهور معدودة على التجاء درماس ودومينا إلى حمى الأمير الكريم، حتى انطلقت الحرب مرة أخرى من عقالها، وزحف جيش زومي لجب لغزو بلاد الحمدانيين، وهدفه الأخير الاستيلاء على حلب.

كان ذلك في سنة ٣٤٢ هجرية، الموافقة لسنة ٩٥٣ للميلاد. وكان على رأس الجيش الزاحف، القائد برداس فوكاس، الذي وضع فيه الامبراطور ثقته وأمله!

وقال قسطنطين لأبيه: "دعني اذهب في رفقتك إلى ميادين القتال وإذا دخلنا مدينة حلب، فدعني أبحث عن غريمي، وعن المرأة التي خانتني وأنتقم منهما كما يروق لي أن أنتقم!".

وأجاب برداس: "تعال معي! وإذا استولينا على المدينة، فسوف أطلق يدك لتفعل بها وبسكانها ما تشاء!".

وما بلغت مسامع الحلبيين أخبار الزحف الجديد، وما أعدت له بيزنطة من قوة وعتاد، حتى هرعوا ذرافات ووحدانا إلى قصر أميرهم يطلب القادر منهم على حمل السلاح مكاناً له في كتائب الجيش، ويطلب العاجز منهم

عن القتال نصيباً كبيراً أو صغيراً في أعمال الدفاع داخل المدينة.

وأعد سيف الدولة عدته لمواجهة حالتي الكر والفر. وتوكل على الله وخرج للقاء العدو. وكان درماس بين رجال حرسه، بعد أن حقق الأمير رغبته، فتحول التاجر الغساني إلى فارس حمداني!

أما زوجته الرومية، التي يجري في عروقها الدم العربي، فقد بقيت في حلب، حيث التحقت بفريق النساء اللواتي انصرفن إلى إعداد الوسائل اللازمة للعناية بالجرحى، ومواساة المرضى..

عند بلدة "ملاطية" على مسافة قصيرة من مجرى الفرات، وفي بقعة طالما ارتوت أرضها من قبل بدماء الأبطال، من فرس ويونان ورومان، كان الصدام بين الفريقين. الروم بقيادة برداس فوكاس، والعرب بقيادة سيف الدولة بن حمدان!

معركة رهيبة بين المعارك الرهيبة. صلابة في الهجوم وبطولة في الدفاع، دماء أخرى تسيل بغزارة فترتشفها الأرض كما ارتشفت غيرها من قبل. ونصر جديد يعقد لواؤه لابن حمدان. وصفحة نيرة من صحائف الدولة الحمدانية النيرة، يسطرها سيفها بنصله البتار! والخسائر فادحة من الطرفين! وكان بين القتلى الذين استشهدوا في الميدان، درماس الغساني. وبين الأسرى الذين تخلفوا عن اللحاق برفاقهم بعد الهزيمة، قسطنطين الرومي!

الزوج المحبوب، والخطيب المكروه!

ففي غمرة القتال، وجد كل من الاثنين نفسه فجأة وجهاً لوجه مع غريمه، وعرف كل منها الآخر. وأراد درماس أن يأسر قسطنطين، فبادره

الشاب الرومي بضربة من سيفه مزقت عنقه، ولكنه تشبث به قبل أن تخور قواه، ويلفظ أنفاسه الأخيرة، فأسرع رفاقه وأمسكوا بقاتله حياً.

وخرج سكان حلب من خلف أسوارها، للقاء جيشهم العائد من الميدان منتصراً، يسوق الأسرى، ويحمل الأسلحة والأرزاق التي غنمها.

وأنشد أبو الطيب المتنبي، شاعر الأمير ونجيه، وردد الرواة من بعده:

لكـل امـرئ مـن دهـره مـا تعـودا　　　وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

وأنشد معه أبو فراس، وردد الرواة أيضاً من بعده:

وآب بقسـطنطين وهـو مكبـل　　　تحـف بـه بطـارق وزرازر

ولكن فرحة حلب بنشوة النصر، كانت مصحوبة بالعبرات، نساء بكين أزواجهن، وأخوات بكين أوتهن، وأمهات بكين فلذات أكبادهن!! وكانت دومينا بين الباكيات!

أن خطيبها الذي زجرته، قتل زوجها الذي اختارته. فهل تشمت بالقاتل الذي وقع في الأسر؟ وهل تسعى إلى الثأر منه للدم المسفوك؟

أرسل سيف الدولة في طلبها، وغمرها بعطفه. وقال لها أنها منذ ذلك اليوم نزيلة القصر، تعيش فيه كواحدة من نساء الأسرة الحاكمة وبناتها، وأن ما عليها إلا أن تفضي إليه برغباتها، أيا كانت هذه الرغبات، ليحققها لها بدون إبطاء. وانتقلت الزوجة التي ترملت إلى قصر الأمير.

أما الأسير، فقد ساءت حالته منذ أن أدرك ما حل به، ساعة جيء به إلى المكان الذي اعتقل فيه رفاقه في الأسر، فقد تولاه الحزن، وانتابه الذهول..

علم سيف الدولة أن الفتى يهذي بكلام غير مفهوم، يتخلله اسم دومينا، وأنه في معظم الأحيان يمتنع عن تناول الطعام، ويقضي الجزء الأكبر من لياليه ساهراً منتحباً. فأرسل في طلبه وأشفق عليه لما رآه على تلك الحالة من الكمد واليأس، ووعده بأن يطلق سراحه، ويفك أسره، ويعيده إلى أهله وقومه، وسأله إذا كان يريد شيئاً آخر لكي يجيبه إلى ما يريد.

وأصغى الشاب إلى كلام الأمير صامتاً، شاخص البصر، ثم تمتم قائلاً: "دومينا!".

فأمر سيف الدولة بأن تخصص للأسير حجرة في قصره، وأن يحاط بعناية خاصة، واطلع دومينا، الزوجة الحزينة، على ما وصلت إليه حالة الأسير من تدهور جسماني وعقلي، وطلب منها أن تزوره رحمة به، فإن الله سيحسب لها هذا الإشفاق على التعس المسكين في محنته، فتكسب ثواباً. ولا ريب أن روح زوجها الشهيد ستكون مرتاحة إلى صنيعها في جنة الخلود!

وزارت المرأة خطيبها السابق في سجنه! وقد كظمت حزنها، ونادته باسمه. لكنه لم يجب، بل نظر إليها بعينين منطفئتين، تنمان على ذاكرة مفقودة، ومشاهر هامدة، وذهن ضائع!

وأدركت الزوجة أن دم زوجها لم يذهب هدراً، وأن الثأر قد تم لها وله، وأن الرجل الذي قتل درماس بسببها، يعاني ما هو أشد ألماً من الموت، وأن روحه تفارق جسمه على مراحل!

عاش قسطنطين على هذه الحالة بضعة شهور، ثم وجدوه ذات يوم ميتاً على فراشه، وعيناه جاحظتان.

وأراد سيف الدولة أن يدفن ابن القائد الرومي الكبير حسب طقوس

دينه. فسلم جثته إلى المسيحيين في حلب، فدفنوه في فناء الكنيسة. ثم كتب الأمير الكريم إلى برداس فوكاس، ينبئه بوفاة ابنه، ويعزيه في مصابه!

وفي الوقت نفسه، كتبت دومينا إلى أبيها الضابط في جيش الروم، تدعوه إلى موافاتها في حلب. فلبى الرجل الدعوة، وأكرم سيف الدولة وفادته كما أكرم من قبل وفادة ابنته وحبيبها، فطلب دوميسيوس أن يلحقه الأمير الحمداني بخدمته، فأجيب إلى طلبه. واستقر مع ابنته في حلب.

لكن الأقدار أبت إلا أن تظل دومينا وحيدة في العالم، بلا أب ولا زوج فقد سقط دوميسيوس قتيلاً في إحدى المعارك بجبال طوروس، سنة ٩٦٠ ميلادية الموافقة لسنة ٣٤٩ هجرية.

فاستأذنت ابنته من الأمير الحمداني الذي عاشت مع زوجها ثم مع أبيها في حماه، بأن تعتزل الحياة وتقضي بقية أيامها في الدير.

وفي جبال لبنان، بين صوامع الرهبان والراهبات، كرست دومينا الرومية العربية نفسها للصلاة والعبادة والدعاء لمن أحبتهم على هذه الأرض.

فهل كانت على قيد الحياة، يوم انتقل الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله الحمداني التغلبي إلى جوار ربه، في سنة ٣٥٦ هجرية، الموافقة لسنة ٩٦٦ للميلاد بعد أن تولى الإمارة ثلاثاً وعشرين سنة؟

وهل بلغها خبر وفاته، فصلت من أجله في ديرها كما صلت فيه من أجل أبيها وزوجها؟

أما ماتت قبله، وهي تذكرة بالخير، لفرط ما صنعه معها من خير؟

أحلام "جلنار"



أحلام عجيبة رأتها فتاة، وتحققت للملك محمود الغزنوي،
الذي يعود إليه الفضل في انتشار الإسلام في الهند.

أمام كوخ مصنوع من أغصان الشجر، على صفة غدير تحنو عليه صفصافة أرخت غصونها لتغتسل في مائه، ترجل الفارس وفعل رفاقه مثله، وتركوا خيولهم تمرح حرة في ذلك المكان الهادئ، بين الحشائش والأعشاب، وهرعت إليهم فتاة خلفها قطيع صغير من الغنم والماعز، فرحبت بهم، ودعتهم إلى أرواء ظمئهم من ماء الغدير، وقدمت لهم اللبن والعسل في قصاع من الخشب.

يبدو عيلها أنها لم تجاوز بعد نهاية العقد الثاني من العمر. ولما سألها الفارس عن أهلها، قالت أنها يتيمة، تعيش في ذلك الكوخ مع أخيها، وهو يكبرها سناً، والاثنان يرتزقان من بيع الأصواف والألبان والأخشاب.

وأجابت عن سؤال آخر بأن اسمها "جلنار" واسم أخيها "موسى" وأنه يقال له "الحلبي" لأنه سافر إلى حلب مع أبيه، ثم عاد منها وحده، بعد أن قتل أبوه خطأ في إحدى الغزوات.

وسألت الفتاة بدورها:

– وأنت، ما اسمك؟

وأجاب الفارس:

– محمود...

فسكتت جلنار لحظة، ثم استطردت تقول:

وهو أيضاً.. كان اسمه محمود.. مثلك أنت .. ومثلك أنت كان يصطاد في الغابة قبل أن يترجل أمام هذا الكوخ...

فعاد الفارس يسأل:

– هو؟ .... من هو؟ ......

– الشاب الذي رأيته في منامي أمس.. الشاب الذي قرأت صفحة من حياته في الحلم .. الشاب الذي شرب مثلك من هذا الغدير، وذاق لبن الماعز وعسل النحل في هذا المكان الذي أنت واقف فيه ... الشاب الذي هو أنت ...

– إن حديثك يشبه حديث المنجمات والعرافات والساحرات!.. قال الفارس هذا وضحك ضحكة عالية صاحبها رفاقه بضحكات عالية مثلها. فقطبت الفتاة جبينها، واختفت الابتسامة عن شفتيها، وعلت وجهها أمارات الكآبة الممزوجة بالغضب، وقالت بصوت حاولت أن تجعله خشناً:

– اسمع يا سيدي.. كانت أمي تقرأ في الكف وتستطلع الغيب بالضرب في

الرمل وإلقاء الحصى في المياه الراكدة.. أما أنا، فإنني أقرأ في الحلم، وأنا غارقة في النوم، ما سوف يحدث في الغد للأشخاص الذين أراهم في المنام.. لا تضحك.. ولا تهزأ بي ... وأستمع إلى ما أقوله لك، ثم انصرف وفقك الله، واذكرني بالخير إذا ما تحقق شيء من أقوالي..

وعلى مسمع من الفارس محمود ورفاقه في الصيد، قالت جلنار:

– رأيت أنت ... أنت لا سواك .. تجلس على عرش وترفع فوق رأسك قبة من ذهب .. ورأيتك على متن جوادك تقود جيشاً إلى القتال بعد أن رأيتك تقود كوكبة من الفرسان في رحلة للصيد والقنص ... مثل هذه الرحلة ... ورأيتك تجتاز البراري والقفار، والجبال والأودية، وتقتحم القلاع والحصون، وتفتح البلدان والأمصار، وتنشر بين أهلها دين التوحيد، فتدخل في كنف الإسلام على يدك أقوام وجماعات يتضاعف عددها على كر الأيام.. رأيتك تعود من كل غزوة والقوافل خلفك تحمل أسلاب المعارك، فتغدق المال والعطايا على من يشملهم عطفك وحبك.. رأيتك تحقق من الأعمال العظيمة ما عجزت عنه همم الذين سبقوك في حكم هذه الديار.. رأيتك تواجه الموت فيهرب الموت منك.. ثم رأيتك تعرض صدرك للنبال فتنقذك من الموت امرأة تكون في تلك اللحظة الرهيبة واقفة بجانبك.. ورأيت المرأة تموت بين ذراعيك.

سكتت جلنار. وعاد محمود يسأل:

– وأنا؟ ... أما لقيت حتفي يوم داهمتني النبال التي قتلت المرأة؟

فأجابت الفتاة:

– لا .. لم تقتل أنت في ذلك اليوم .. ولكنني رأيتك بعد تلك الحادثة تموت حتف أنفك في السرير الذي تنام فيه!

– كل هذا في الحلم؟

– نعم.. فإنني أرى الغيب ولا أقرؤه كما كانت تفعل أمي .. أرى في المنام ما سيحدث لغيري من الناس في اليقظة.. ولكنني لا أرى شيئاً مما سيحدث لي أنا...

– إذن، يجب أن تتركي هذا الكوخ يا جلنار، أنت وأخوك.. وأن تقيمي معي في كنفي وضيافتي، ريثما تتحقق هذه النبوءات الكثيرة التي أفضيت بها إلي، والتي ترجو ألا تكون أوهاماً وأضغاث أحلام!

فأجابت الفتاة:

– كثيراً ما تكون الحقائق أحلاماً، والأحلام حقائق!

وعاد الفارس الصياد إلى المدينة، ومعه رفاقه في تلك الرحلة – وقد انضم إليهم موسى الملقب بالحلبي، وأخته جلنار راعية الغنم.

مات الأمير التركماني سبكتكين، وخلفه ابنه إسماعيل الذي قتل قبل أن ينعم بالحكم، فخلفه في منصبه أخوه محمود..

ومحمود هو الفارس الذي تنبأت له العرافة الحالمة بأنه سيكون بطلاً من أبطال الحروب والفتوحات...

جعل مدينة "غزنة" مقراً لحكمه. وقرر أن يجمع شمل القبائل التركمانية في دولة واحدة، يكون هو رأسها، ويحتفظ بالولاء للخليفة أمير المؤمنين

الجالس على عرش العباسيين ببغداد، وهو ولاء لا يضر ولا يكلف شيئاً.؟

كان ذلك سنة ٣٨٧ للهجرة – الموافقة لسنة ٩٩٧ للميلاد – في عهد خلافة القادر بالله أبي العباس، الضعيف الخامل..

وما انقضت سنة واحدة على إنشاء العرش الذي تبوأه محمود بن سبكتكين في مدينة غزنة، حتى كان جميع الأمراء والحكام في تركستان قد دانوا له بالطاعة، واعترفوا بسيادته، ولقبوه بأمين الدولة، ووضعوا جيوشهم تحت لوائه، ومشوا معه لغزو خراسان وغيرها من الأقاليم المجاورة، وقلق مهارجة الهند وحكام الإمارات الواقعة على الحدود من قيام الدولة الجديدة، دول الغزنويين، على مقربة منهم، وراحوا يتشاورون فيما بينهم لوضع خطة مشتركة يدفعون بها عن أنفسهم وإماراتهم ذلك الخطر المتفاقم في الشمال. وفطن محمود الغزنوي إلى ذلك وأراد أن يحطم المؤامرة في مهدها، فقرر أن يزحف على الهند قبل أن يجمع أمراؤها ويزحفوا على دولته الفتية.

وسدد ضربته الأولى إلى إمارة "لاهور" فحاول ملكها الراجا أن يقاوم الزحف المفاجئ، ولكنه غلب على أمره، وطلب الأمان ورضى بدفع الجزية والاعتراف بسيادة الغزنوي عليه!

وبعد اجتياح دولة لاهور الهندية، قال محمود للفتاة العربية:

– قضينا يا جلنار على أعدائنا في الداخل، فلا أحد يزاحمنا على الملك الآن في بلاد تركستان كلها، ولا في خراسان والأقاليم الفارسية. فقد أخذناها كلها بالحسنى أو اخضعناها بالقوة.. وبقي علينا أن نفتح الهند

وندك عروشها ونبسط سلطاننا على شعوبها، فنوسع بذلك ملكان، ونوسع معه دولة الإسلام، فنخدم ديننا ودنيانا في آن معاً!..

وأخذ محمود الفزنوي يد جلنار بين يديه، وطبع قبلة على جبينها، وقال بصوت مفعم بالحنان والإخلاص:

– ألا تزالين على رفضك؟.. لا حليلة، ولا خليلة؟

وأطرقت الفتاة لحظة، ثم رفعت عينيها والدموع تترقرق فيهما، وقالت بصوت مثل صوت الشاب، مفعم بالحنان والإخلاص.

– أحبك يا مولاي!.. ولكنني لا أزال على رفضي: لا حليلة، ولا خليلة. وإنني أذكر ما قالته لي أمي: "اعلمي يا ابنتي أن القوة الخفية التي تجعلك ترين في المنام ما سوق يصبح في المستقبل حقيقة واقعة، ستظل كامنة فيك ما دمت فتاة عذراء لا تعرف رجلاً ولا يعرفها رجل!... أما إذا حدث شيء من هذا، فمعرفة الغيب ستفارقك إلى غير رجعة!.." ومن أجل هذا يا مولاي، من أجل الإبقاء على تلك القوة الخفية، والاحتفاظ بتلك المزية العجيبة، أكرر الآن ما قلته لك أكثر من مرة: لا حليلة، ولا خليلة!

وانطلق محمود الغزنوي إلى فتوحات أخرى، وفي رفقته قائد الحرس موسى الحلبي، وأخته العرافة جلنار..

كان الإسلام قد دخل للمرة الأولى إلى الهند على يد القائد محمد ابن القاسم، في سنة ٩٤ الهجرية، الموافقة لسنة ٧١٢ للميلاد. ولكن الدين الجديد لم ينتشر بين الهنود ولم ينطلق قواد آخرون في الطريق الذي انطلق

فيه ابن القاسم، لمواصلة مهمته وأداء رسالته. فتوقفت الدعوة بتوقف الفتح، بعد موت مُحَمَّد بن القاسم.

وكتب للسلطان محمود الغزنوي، صاحب غزنة وبلاد التركمان والتركستان وخراسان وأقاليم فارس بجملتها، أن يكون ذلك الفاتح المختار.

أربع عشرة مرة زحف محمود الغزنوي على الهند، وخلفه جيش لجب يدك به الأسوار، ويقتحم المدن، ويجتاح الأمصار.

بعد خضوع ملك لاهور، خضع للفاتح الملك راجا باولبور. وتبعه راجا ملتان، ثم راجا جواليور، فراجا كانوج، فراجا دلهي..

نزع أولئك الملوك التيجان عن رءوسهم ووضعوها تحت قدمي الفاتح الذي جاء من الشمال، وسلموه كنوزهم وأموالهم وقصورهم وعبيدهم، فأخذ منها ما أخذ، وترك لهم ما ترك، وتمشت القوافل محملة بالأسلاب إلى غزنة وغيرها من مدن الدولة الغزنوية!

وكان السلطان محمود الفاتح لا يقف عن الزحف إلى الأمام إلا ما يكفي من الوقت لإعطاء الجنود نصيبهم من الراحة، والإشراف على شئون الدولة ومصالح الرعية..

واصل الرجل زحفه فبلغ جبال هملايا من ناحية. ومجرى نهر الكنج من ناحية أخرى، فدانت له دول بعد دول، وشعوب بعد شعوب؛ كشمير، وراجبوتانا، وجوجره، والبنجاب. وأنهار أمامه عرش سوستان وفر صاحبه السلطان خلف. وأخذ غردستان من آل الغوري. وامتد ملكه فشمل بلاد الفرس كلها، والشطر الشمالي الغربي من بلاد الهند المترامية الأطراف...

وكان العلماء والشعراء والأدباء والمنشدون والموسيقيون في العاصمة "غزنة" يتغنون بمفاخر الفاتح الذي لا يعرف الكلل، وكان أشدهم حماسة "البيروني" الذي خلد اسمه واسم السلطان الذي أغدق عليهم النعم، ومثله أيضاً كان "الفردوسي" الذي نظم ملحمته الرائعة التي سماها "شاهنامه" أي "كتاب الملوك" مستمداً الوحي والإلهام من حياة محمود الغزنوي الفاتح المحظوظ الذي لم يقهر، والذي انتشر الإسلام في الهند على يده!

ظل السلطان التركماني يحارب وينتصر، ثلاثين سنة متوالية بلا انقطاع، ولم تختلف جلنار، صاحبة الأحلام، مرة واحدة عن مرافقته في حروبه، ومشاركته في انتصاراته.

وفي خلال السنوات الثلاثين، كان الخليفة العباسي، ورجال دولته، وأقطاب المسلمين في الشرق كله، يتوجهون بدعواتهم إلى ذلك الفارس الذي لا يشق له غبار، والفاتح الذي لا تصمد في وجهه قلاع، والمحارب الذي لم يعرف الهزيمة، وكانوا يجنون معه ثمار تلك الانتصارات الرائعة، فيلحقهم من فخرها رشاش، ومن أسلابها نصيب!

وظلت جلنار على رفضها: لا حليلة، ولا خليلة!

في سنة ٤٢٠ للهجرة، الموافقة لسنة ١٠٢٩ للميلاد، كان السلطان محمود الغزنوي في حرب مع مجد الدولة بن بويه الغزي، المعتصم في قلعته المنيعة بالعراق العجمي. وكان فريق من الحساد والموتورين قد انضموا إلى هذا الأمير الحقود لمحاربة الغزنوي، طامعين في اقتطاع جزء أو أجزاء من ملكه الواسع.

وقرر السلطان أن يضرب عدوه، كعادته، ضربة واحدة ولكنها قاضية.

ورافقته جلنار في تلك الغزوة كما رافقته من قبل في غيرها...

وفي الطريق إلى القلعة، وقع محمود الغزنوي وحرسه في كمين نصبه أنصار مجد الدولة في أحد الأودية. وانهالت السهام من خلف الصخور كالمطر المدرار ووقفت جلنار بجانب معبودها ترقب القتال وتشترك فيه.\

وتسلل أحد الرماة من الأعداء إلى مقربة من المكان الذي كان السلطان واقفاً فيه، وقد ترجل عن جواده واحتمى به، وصوب الرجل سهماً لم يشك لحظة في أنه سيكون صائباً وأنه سيستقر في الصدر الذي استهدفه..

ولكن السهم الصائب لم يستقر في صدر الغزنوي، بل اخترق صدر الفتاة التي كانت حائلاً بينه وبين الرامي!..

وتمايلت جلنار وسقطت بين ذراعي رفيقها، والدم يسيل بغزارة من الجرح القاتل..

وتمتمت قائلة:

- أما تنبأت لك. حسب المنام، بأن امرأة ستنقذ حياتك من الموت!..

ثم تمتمت أيضاً:

- ولكنني ما رأيت في الحلم أنني أنا هي تلك المرأة التي تنقذ حياتك!

وللمرة الأولى، بين تراشق السهام والنبال، وصيحات المتحاربين، وقعقعة السلاح، التقت شفاه الحبيبين في قبلة حارة..

قبلة فاضت معها روح جلنار التي تاقت إلى الحب وهي في العشرين، ولكنها حرمت نفسها منه مدة ثلاثين سنة، وذاقت قبلته الأولى وهي على عتبة العقد السادس من العمر!

تحققت أحلامها جميعا!..

أصبح حبيبها أمين الدولة محمود الغزنوي ملكاً، وفتح الأقطار والأمصار، ونشر الدين الإسلامي في الهند، وأحرز من الأموال والكنوز ما لم يحرز مثله غير القليلين من الملوك، وأغدق النعم والعطايا على رعاياه بلا حساب، وكان في حياته محباً مخلصاً لمن أحبه وأخلص له...

ومات حتف أنفه في سريره، حسبما رأت جلنار في الحلم، بعد موت صديقته وحبيبته بسنة واحدة!

فقد ختمت حياة أمين الدولة السلطان محمود الغزنوي في سنة ٤٢١ للهجرة الموافقة لسنة ١٠٣٠ للميلاد، بمدينة غزنة عاصمته الزاهرة، في العقد السادس من العمر، تاركاً ملكاً إسلامياً تمتد حدوده من شواطئ بحر قزوين إلى ضفاف نهر الكنج!

وإليه يعود الفضل في دخول الإسلام وانتشاره وتثبيت دعائمه في بلاد الهند.

غزالة



مقابلة المعروف بالمعروف واجبة حتى بين الأعداء!

عندما جلس على عرش مصر الخليفة العلوي الطفل "أبو علي المنصور" الملقب بالأمر بأحكام الله، تولى تدبير شئون الدولة وزيره "الأفضل" فكان أول عمل أقدم عليه تجريد حملة عسكرية لاسترجاع ما انتزعه الصليبيون من أرض فلسطين المقدسة.. وفي أوائل سنة ١١٠٢ للميلاد، الموافقة لسنة ٤٩٦ للهجرة، كان عشرون ألف فارس وراجل قد احتشدوا في مدينة "عسقلان" الحصينة، حيث التحق بهم السكان وحرضوهم على الزحف نحو بيت المقدس.

وكان على رأس الجيش المصري في تلك الحملة القائد الشاب "شرف المعالي" ابن الوزير (الأفضل) فقرر أن يفاجئ الصليبيين قبل أن يعدوا عدتهم للقائه، وخرج برجاله وعتاده من أسوار "عسقلان" قاصداً إلى "الرملة واللد"، فيهدد في آن واحد مدينة القدس عاصمة الدولة المسيحية، ومدينة يافا ميناءها..

وعلم ملك الفرنج "بودوان الأول" بخبر هذا الزحف غير المنتظر فقرر الخروج في الحال لمنازل الجيش الزاحف قبل أن يصل إلى طريق القدس

وعبثاً حاول رجال حاشيته أن يثنوه عن عزمه، ويحملوه على التريث ويقنعوه بوجوب إرسال الكشافة إلى الساحل لمعرفة عدد المهاجمين، واستنفار الحاميات الصليبية في السامرة والجليل ويافا. فقد أصم الملك أذنيه عن سماع النصائح، واندفع نحو "الرملة" على رأس قوة مؤلفة من مائتي فارس فقط..

وكان لابد أن يلاقي ذلك العمل الطائش الجنوني عاقبته الوخيمة فقد أدرك الملك خطاه عندما أشرف على سهل الرملة، فإذا به أمام الجيش المصري اللجب يملأ ذلك السهل ويسد منافذه، فلا تأخذ العين آخره!

شعر "بودوان" بأنه قاد قوته إلى هلاك أكيد، فأراد أن يعود على أعقابه ولكن بعد فوات الوقت. فقد انتشر الفرسان العرب والسودانيون من جناحي الشعب المصري، وأحاطوا بالصليبيين من كل ناحية، وعولوا على الفتك بهم خوفاً من أن يكونوا طليعة لجيش كبير قادم، فأرغموهم على خوض غمار معركة عرفت نتائجها قبل أن تنطلق السيوف من أغمدتها..

كان ذلك في السابع عشر من شهر مايو سنة ١١٠٢. وقد أبدى الملك الصليبي ورجاله من ضروب الشجاعة والفروسية ما أثار إعجاب القواد المصريين، ولكن الدائرة دارت عليهم، فتساقط الفرسان واحداً بعد واحد في ذلك الخضم البشري الشاسع، وظل الملك يستحثهم على القتال ويستدرجهم شيئاً فشيئاً للإفلات من غمرته، والابتعاد عن السهل الرهيب، والالتجاء إلى بلدة الرملة الحصينة للاحتماء بأسوارها.

وقد حال الظلام وحده دون القضاء على البقية الباقية من شراذم الصليبيين، ولما نادى الملك رجاله لتدبير أمر الدفاع عن البلدة، هاله ما رأى فقد هلكت في المعركة زهرة الفرسان ولم ينج من الموت غير بضع عشرات منهم. فأيقن بودوان أن المصريين سيهاجمون الرملة في صباح اليوم التالي، وأنه ورجاله مقضى عليهم ولا أمل في الخلاص من الموت أو الأسر إلا بمعجزة!

وفي الليل حدثت المعجزة!

فقد وصل قبيل الفجر، إلى البرج الذي اتخذه الملك مقراً له وعول على لقاء الموت فيه، رجل بدوي طلب المثول في الحال بين يدي "بودوان" وما أن دخل عليه حتى أسرع فتناول طرف ردائه ورفعه إلى شفتيه، ثم طبع قبلة على يد الملك وقال:

- إنك لا تعرفني أيها الملك. ولكني أعرفك. ولم تسمع باسمي ولكني سمعت باسمك. وقد سبق أن غمرتني بفضلك فطوقت عنقي بجميل أحفظه لك مدى العمر.. أنا زوج "غزالة" البدوية!

فانتفض الملك وارتسمت على فمه ابتسامة فيها سرور وفيها دهشة، وفيها بارقة أمل.. ونسى لحظة ما كان يكتنفه من هموم، وسأل البدوي:

- غزالة؟.. كيف حالها؟ وأين هي؟

- إنها بخير أيها الملك تدعو لك بالسعادة وطول العمر.. ولكن دعنا منها الآن، فالوقت ضيق والساعات معدودة، فلابد من إنقاذ حياتك اليوم كما أنقذت زوجتي.. أن الجيش المصري سيهاجم أسوار الرملة عند

طلوع الشمس.. فالهرب خير لك من البقاء، إذ لا فائدة لك من المقاومة، ولا أمل لك في النجاة غداً. وإنني أعرف منفذاً سرياً يمكنك أن تتسلل منه إلى الخارج مع بعض رفاقك أو معهم جميعاً إذا شئت. وما جئت الليلة إلا لكي أسير أمامك في ذلك المنفذ. فاتبعني ولا تضيع لحظة واحدة!

تشاور الملك مع فرسانه. فقرروا جميعاً أن الهرب من الحصن ليلاً خير من البقاء كما قال البدوي. وإن حياة صاحب العرش ليست ملكاً له بل هي ملك لشعبه ودولته، فالإبقاء عليها وإنقاذها من الهلاك واجب يفوق واجب الدفاع عن موقع حربي لا أمل في الاحتفاظ به..

فالتفت الملك إلى البدوي وقال:

– سر أمامي.. إنني أتبعك!

من هو ذلك البدوي، ومن هي زوجته "غزالة"، وماشان ملك الصليبيين بهما؟

لابد لنا من الرجوع عاماً إلى الوراء..

ففي سنة ١١٠١، الموافقة لسنة ٤٩٥ للهجرة، كانت الحرب بين المسلمين والصليبيين قد خفت حدتها، فتطورت إلى سلسلة من الغزوات والمناوشات بل إلى نوع من أعمال السلب والنهب، فكان كل فريق يغزو الآخر على الطريقة المتبعة بين قبائل البادية، يعود إلى مواقعه بالأسلاب والغنائم والأسرى.. وحدث مرة أن علم الملك "بودوان" بأن جماعات من العرب تضرب مضاربها على ضفة نهر الأردن الشرقية، تجاه حدود مملكته،

وأنها تطلق هناك في المراعي الخضراء عدداً كبيراً من الخيول والجمال والحمير والخرفان، ففاجأها بقوة من الفرسان قادها بنفسه، وتفرق العربان في الصحراء بعد أن قتل منهم من قتل، وجرح من جرح، وساق الصليبيون أمامهم القطعان والأسرى. واجتازوا النهر عائدين من حيث أتوا..

وبينما هم في طريقهم وسط الجبال، قيل للملك أن امرأة بدوية على وشك أن تلد! وهي تقول إنها زوجة شيخ من شيوخ العرب، عهد إلى بعض أقاربه بمرافقتها إلى "بيسان"، فكان نصيبها الوقوع في الأسر.

امرأة حامل تلد في الطريق! إن هذا لحادث يثير في آن واحد الضحك والشفقة! وقد ضحك الملك ولكنه أشفق على تلك المسكينة التي كان رجاله يسرقون الناقة التي تحملها مع بقية الإبل. فقصد إليها في الحال، ومعه بعض الرفاق المقربين، وأمر بأن يتوقف الجميع عن مواصلة السير، وأن تنصب خيمة للمرأة البدوية، وتعني بها النساء الأخريات، ويسهرن على راحتها..

وشهد ذلك المكان، في الطريق بين الأردن والقدس، منظراً لم يقع عليه بصر من قبل، فقد ربضت تلك الجموع من الصليبيين والعربان مع خيولها وقطعانها بين الصخور، ريثما تضع المرأة البدوية الحامل وليدها ونزع الملك رداءه الأخضر، وأمر بأن يجعلوه غطاء لها، وأن يبحثوا عن ناقتين يخصص لبنهما لتغذية الأم وإرضاع الطفل، وأن توضع في الخيمة قربتان من الماء الصافي، وتبقى مع المرأة اثنتان من صويحباتها البدويات، حتى إذا ما تم خلاصها مما هي فيه، واستعادت قوتها، أعيدت إلى زوجها حيثما يكون!

وودع الملك الصليبي المرأة البدوية. وسألها عن اسمها فقالت:

– اسمي غزالة!

ودهش الملك لغرابة المصادفة: فإن الفرس العربية الأصيلة التي يخوض بها عجاج المعارك تدعي أيضاً "غزالة" وقد غنمها من أمير عربي في إحدى غزواته السابقة.. فابتسم وقال للمرأة:

– أستودعك الله يا غزالة، وسوف أفكر فيك كلما وقع نظري على الغزالة العربية الأخرى، التي تثير إعجابي بذكائها ووفائها!

فأجابت البدوية:

– أن الذكاء والوفاء أيها الملك من صفات أهل البادية، إنسانها وحيوانها على السواء، فلا غرابة في أن تكون فرسك الأصيلة ذكية وفية. وثق إننا نحفظ حسن الصنيع ولن يضيع الجميل معنا!

تلك قصة المرأة البدوية التي جاء زوجها، بعد سنة من ذلك الحادث، برد الجميل لملك الصليبيين، فينقذ حياته في الرملة، كما أنقذ الملك حياة زوجته في وعر الأردن. فقد كان زوج "غزالة" يحارب في صفوف الجيش المصري عندما فتك بالقوة الصليبية وأرغم فلولها على الاحتماء بأسوار البلدة الضيقة، ورأى الشيخ أن الفرصة سانحة لمقابلة الصنيع الحسن بمثله، ففعل ما فعل في تلك الليلة الرهيبة، وتسلل إلى داخل الحصن، وعرض على الملك أن يدله إلى سبيل الخلاص.

وعمل بودوان الأول بنصيحة منقذه، وإشارة فرسانه، فخرج من

الرملة ومعه أربعة من رجاله فقط، وساروا خلف الدليل البدوي. وشقوا طريقهم بين مواقع الجيش المصري، ثم انطلق الملك على متن فرسه "غزالة"، في الجبال والوديان..

ولحق به المصريون ولكنه أفلت منهم، وأوشكوا أن يقطعوا عليه الطريق مرة أخرى في "دير عمار" و "الكفر" ولكن سرعة غزالة، حالت دون وقوعه في الأسر..

وفي اليوم التالي، هاجم الجيش المصري أسوار الرملة فاقتحمها بعد صراع دام يوماً وبعض يوم. وفي ١٩ مايو ١١٠٢، سقطت البلدة في قبضة المهاجمين، ووقع في الأسر من تبقى من رجال "بودوان"...

أما الملك، فقد نجا بفضل الغزالتين: المرأة البدوية الوفية التي أوفدت إليه زوجها، والفرس العربية الأصيلة التي حملته بعيداً عن مواطن الخطر!

الفدية



مباراة في كرم الأخلاق بين أميرين عدوين!

في ربيع سنة ١١٠٤ للميلاد – ٤٩٧ للهجرة – احتدم القتال بين الأمير بودوان صاحب "أورفة" والسلطان "جكرميش" صاحب الموصل، وانتهى الصراع بهزيمة الإفرنج في معركة حران هزيمة منكرة ووقوع بودوان في الأسر، وتعرضت الإمارات الصليبية في شمال سورية من جراء ذلك لخطر الانهيار.

وكان بودوان من أبطال الصليبيين المشهود لهم بالشجاعة والإقدام وحسن التدبير، فارتاعت لوقوعه في الأسر خواطرهم، وراحوا يعدون العدة إما للانتقام له من قاهريه، وأما لافتدائه منهم بالمال، بعد أن ساقه جكرميش إلى الموصل حيث اعتقله في حصن منيع، في انتظار ما تخبئه له الأيام.

وحدث بعد معكرة حران ببضعة شهور، أن كانت إحدى قوافل المسلمين في طريقها إلى العراق، وفيها نساء بينهن "صفية خانم" ابنة الأمير "الجاولي" من قواد الترك المغاوير، وأحد أقارب "جكرميش" المعززين، فلما أصبحت القافلة على مقربة من "تل باشر" اعترضتها شرذمة من فرسان

حاميتها الإفرنج في ساعة مبكرة من الصباح. ففتكوا برجالها، واستولوا على بغالها وجمالها المثقلة بالأحمال، وتركوا النساء هائمات على وجوههن في قفر لا ماء فيه ولا نبات!

ولكن، ما قربت الشمس من الغروب، وبدأ الليل يسدل ستره على التائهات الشريدات، وقد افترشن الأرض وتوسدن الصخور، حتى أقبل عليهم خمسة فرسان من الصليبيين يقودون وراءهم عشرة بغال، وخاطبهن أحد هؤلاء الفرسان قائلاً:

– معذرة أيتها السيدات، على ما بدر من رجالي نحوكن من إساءة جئت الآن أكفر عنها.. ليس من شيم الفرسان، ولا يليق بأبطال الحروب، أن تترك النساء في العراء بلا مأوى ولا زاد. فاليكن هذه البغال وما تحمله من أرزاق، وسأسير معكن غداً. فأرافقكن إلى حدود إمارتي معززات مكرمات!

وهكذا كان..

وقصت "صفية خانم" على أبيها ما حدث لها ولأخواتها مع ذلك الفارس الصليبي، الذي لم يشأ أن يذكر لها اسمه، والذي لولاه لما بلغت أرض الأمان على قيد الحياة.

مات جكرميش وخلفه في إمارة الموصل صديقه "الجاولي"، فجعل يرسم الخطط لتوسيع ملكه على حساب جيرانه من إمراء الإفرنج. وكان الأمير بودوان لا يزال أسيراً في القلعة، فأبلغ السلطان الجاولي أصدقاء الأسير وأقاربه أنه مستعد لإطلاق سراحه وإعادة حريته إليه مقابل فدية

قدرها سبعون ألف دينار، ومعاهدة يوقعها الطرفان ويتعهدان فيها بالتعاون في السراء والضراء.

وما أضيع هذا القرار حتى تناقله الناس من قلعة إلى قلعة ومن مدينة إلى أخرى. وبعد بضعة أسابيع من إذاعته، وفد على مقر الجاولي فارس صليبي لا يرافقه أحد، وطلب المثول بين يدي السلطان، فأجيب إلى طلبه.

قال الفارس الغريب:

– أيها الأمير. أنا جوسلان دي كورتيني، صاحب تل باشر وصديق الأمير بودوان الذي تحتفظ به أسيراً عندك. كنت بين القواد الإفرنج الذين وقعوا في الأسر مع الأمير، في معركة حران، ولكنني افتديت نفسي بالمال واستعدت حريتي وجئت الآن أفتدي صديقي.. وما كنت لا أحمل من الفدية التي قررتها إلا ثلاثين ألف دينار، فخذها وأطلق سراح الأسير، على أن يبعث إليك بالباقي بنفسه، بعد عودته إلى مقر إمارته..

– ومن يضمن لي ذلك؟

– أنا..! فسأبقى رهينة لديك، ريثما ينفذ الأمير بودوان ما يتعهد به.

سيكون لك ما تريد، لأنك تضرب لنا مثلاً رائعاً في الوفاء، وفي الفداء..

وأطلق السلطان الجاولي سراح أمير أورفة، وأستبقى عنده الأمير جوسلان رهينة شرف، بعد أن ظل الأول في الأسر أربعة أعوام...

دخلت صفية خانم على أبيها في حجرته. والتأثر ظاهر على محياها، وقالت بصوت متهدج مضطرب:

– أبي!.. أتذكر ما رويته لك عن ذلك الفارس الذي رافقني وصويحباتي إلى حدود إمارته، يوم باغتنا الصليبيون وفتكوا بقافلتنا بالقرب من تل باشر؟

– أذكر جيداً يا بنيتيَ!

– أبي.. أن الفارس الذي أنقذنا من الهلاك في ذلك الظرف العصيب، هو الرجل الذي تحتفظ به رهينة لديك، ريثما يرسل إليك أمير أورفة بقية فديته!

أواثقة أنت مما تقولين

– كل الوثوق. فقد رأيته من نافذة حجرتي، يتمشى في الحديقة، ولم يخطئ نظري..ز أنه هو بعينه، ذلك الشهم الهمام!

– ولو علمت ذلك من قبل، لأطلقت سراح صديقه بلا مقابل، ولأعدتهما إلى أهلهما بحراسة رجالي، كما أعادك وأخواتك إلي بحراسة رجاله..!

ونادى السلطان الجاولي حاجبه وأمره بأن يأتي بالأسير الإفرنجي في الحال.

وجيء بجوسلان دي كورتيني، فحياه السلطان ورد الرجل التحية على الطريقة الشرقية، وقال:

– لك أن تأمر بما تريد أيها السيد. ولكن ليس لك أن تخل بشروط العهد الذي قطعته على نفسك.!

فأجاب السلطان

– ما ناديتك أيها السيد لأبلغك إخلالي بالعهد، ببل لأخبرك بأنني تنازلت

عن عشرة آلاف دينار من فدية بودوان أمير أورفة!

فانحنى جوسلان أمام الجاولي، وأخذ طرف ردائه ليقبله. لكن السلطان لم يمكنه من ذلك، بل مد إليه يده ليصافحه قائلاً:

– انهض أيها السيد. فإن انحناءك هذا ليساوي عندي عشرة آلاف دينار أخرى، أتنازل عنها أيضاً من فدية الأمير صديقك! وأنت اليوم ضيفي، وسأقيم لك مأدبة فاخرة، يدعى إليها من رجالي أمهر الفرسان وأبرع الرماة!

خرج السلطان ومدعووه، بعد المأدبة إلى حلبة المباراة، حيث كانت الخيول المطهمة تنتظر فوارسها، وهي تضرب الأرض بحوافرها تواقة إلى الجري وخوض العجاج.

وقال الجاولي لضيفه:

– أيها السيد جوسلان. أننا نعهدك فارساً لا يشق له غبار، وضارباً بالسيف لا يجاريه في الميدان ضارب، فهل لك أن تشرف رجالي بالاشتراك معهم في هذا العرض الذي أعددته اليوم تكريماً لك؟

– سمعاً وطاعة!

– إليك إذن درعي، وإليك سيفي ورمحي. وإليك هذا المهر الأدهم الذي جاءني هدية من نجد، فألفيته أسرع الخيول التي عرفتها!

صال الفارس الصليبي على ظهر جواده في الميدان وجال، وعرض أمام السلطان ورجاله من ضروب الخفة والمهارة والأحكام ما أدهش عقولهم وأثار

إعجابهم. فصفقوا له طويلاً، وهتفوا عالياً، وصافحوه بعد المباراة مصافحة الأبطال للأبطال!.

وقال السلطان وقد انبسطت أساريره بشراً وارتياحاً:

– لقد تنازلت أيها السيد عن البقية الباقية من الفدية فتقبل المهر والدرع والرمح والسيف، هدية مني، وأنت منذ الساعة حر طليق!

دخل جوسلان دي كورتيني على السلطان الجاولي مودعاً قبل رحيله عن القلعة، فإذا به يجد في القاعة سبع نساء بينهن ابنة السلطان صفية خانم..!

وخاطبه مضيفه قائلاً:

– أيها السيد: هؤلاء هن النساء اللواتي أنقذتهن من الهلاك في وعر تل باشر، جئن يشكرنك على حسن صنيعك. فتقبل شكرهن كما تقبلت هديتي، ولنكن من الآن صديقين وفيين!

فبهت جوسلان دي كورتيني، وتذكر تلك الوجوه التي أعاد إليها الهدوء والاطمئنان منذ سنوات، فاغرورقت عيناه بالدموع، وأكبد على يد السلطان وقد بلغ منه التأثر مبلغه. فصافحه الجاولي، ثم عانقه قائلاً:

– سر بالسلامة ورعاية الله. وسيرافقك رجالي إلى حدود المملكة. طابت أيامك!.

وانطلق الأسير الإفرنجي على متن جواد أصيل، عائداً إلى قلعته.

زهرة البرتقان



وضع أكليل من زهر البرتقان على رأس العروس،
عادة نقلها الصليبيون إلى الغرب من الشرق!

وضع الكونت دي تولوز، ريمون دي سان جيل، نصب عينيه هدفاً واحداً، جعل يسعى لبلوغه بكل ما أوتي من قوة وملك من وسائل، وهو إنشاء إمارة على سواحل لبنان، والاستقلال فيها عن بقية الإمارات الصليبية ومملكة أورشليم، بعد ما فقد كل أمل في احتلال المقام الأول بين قواد الصليبيين وأقيالهم. ووقع اختياره على مدينة طرابلس، فاعتزم الاستيلاء عليها، وانتزعها من أصحابها بني عمار. ليجعلها أكبر مرفأ في الشرق، على أمل أن يتخذها في المستقبل – أو يتخذها خلفاؤه من بعده – قاعدة لتوسيع الإمارة، وإدخال جبال لبنان كلها في نطاقها.

جمع فرسانه ورجاله وعماله، ووعدهم بخير عميم ومجد عظيم، فانصرفوا إلى العمل بإشاراته وقيادته، وشيدوا له في سفح الجبل المطل على المدينة، قلعة منيعة أطلق عليها اسمه، وهي لا تزال إلى اليوم قائمة في مكانها، تشرف على طرابلس الممتدة تحت أقدامها، وتعرف بقلعة "سنجل" وهو تحريف لاسم سان جيل، وراح الصليبيون يشنون الغارات على المدينة

فيصدهم عنها بنو عمار مرة بعد مرة. ولكن صاحبها "القاضي فخر الملك بن عمار، خشي مغبة ذلك التحرش. فجرد جيشه بكامله في عام ١١٠٤ للميلاد – الموافق لعام ٤٩٧ للهجرة – وثب على القلعة بغية مفاجأة الصليبيين فيها والتخلص من جيرتهم المقلقة. لكنه فشل في محاولته، وصمدت القلعة في وجهه، فعاد إلى المدينة بعد أن أنزل بخصومه الخسائر وأضرم في محصولاتهم النيران..

وترك المهاجمون وراءهم في تلك الغزوة بضع عشرات من القتلى، وحملوا معهم الجرحى في انسحابهم. وخرج الإفرنج من قلعتهم يوارون الجثث التراث عملاً بالعادات المرعية بين المتحاربين في ذلك العهد، حيث كان الخصم يدفن جثة خصمه بعد مصرعه.

عثر الصليبيون بين الجثث العربية المبعثرة في مكان المعركة، على جريح لم يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد. وقد أصيب بضربة سيف في عنقه فانتحى ناحية واستجمع قواه، وجعل يغالب الموت محاولاً وقف النزيف، ولكن الدم المتدفق من الجرح أفقده الوعي فوجده رجال ريمون على تلك الحالة، وهو يعاني حشرجة النزع، فنقلوه إلى داخل الحصن حيث انصرفت النساء إلى العناية به، لا فرق في نظرهن بينه وبين الجرحى من رجال الحامية الإفرنجية، فما لبث أن أفاق من غيبوبته، واستعاد حواسه، وكانت صاحبة الفضل الأول في إنقاذه من الموت، فتاة من مدينة "بوردو" تدعى "روز بايو"، تبناها ريمون دي تولوز صاحب القلعة بعد مصرع والدها في معركة على أبواب طرابلس، وعهد إليها في إدارة أعمال الإسعاف والسهر على الجرحى والمصابين.

مرت ستة أسابيع على دخول الفارس الطرابلسي قلعة "سان جيل" وما أن أشرف على الشعفاء حتى كانت أواصر الصداقة قد توثقت بينه وبين الفتاة التي أعادت إلى جسمه الحياة وإلى نفسه الاطمئنان. فعرف قصتها وعرفت قصته.

هي ابنة "لويس بايو". خطبها ابن عمها "شارل بايو"، لكنه جرح في معركة في جبال طورس. فبترت ذراعه اليمنى واضطر إلى العودة إلى وطنه فرنسا. على أمل أن تلحق به خطيبته في أول فرصة سانحة. ثم مات والد الفتاة فأصبحت وحيدة في العالم، وحل ريمون دي تولوز محل أبيها، واعداً بأن يمهد لها سبيل الرجوع إلى بوردو في أقرب وقت.

أما هو، فاسمه "طاهر" وأبوه "ملاعب الطرطوسي" نسبة إلى مدينة طرطوس.. كان من فرسان الحرب الأشداء، وقتل في الدفاع عن مدينة حمص عندما هاجمها الصليبيون فالتحق ابنه طاهر في خدمة بني عمار أصحاب طرابلس. وتزوج فتاة من بنات هذه الأسرة، فرزق منها ثلاثة أطفال، ماتت وهي تضع ثالثهم، فتولت أخته "زينب" تربيتهم، ولم يتخذ هو زوجة أخرى.

قالت روز: "سأطلب من أميرنا ريمون دي سان جيل الإفراج عنك لكي تعود إلى أختك وأولادك!".

وقال طاهر: "شكراً لك.. ولن أنسى ما حييت إنك أنقذتني من الموت، وأرجو أن يسمح سيد هذه القلعة بأن تزوري أختي في طرابلس، وبأن تزورك أختي هنا!".

أمر ريمون دي سان جيل بأن يطلق سراح الجريح طاهر الطرطوسي، وبألا يعترضه أحد عندما يطلب من الحراس دخول القلعة لزيارة "روز" فعاد الرجل وقد شفي من جراحه إلى أولاده وأخته. وأطلع القاضي فخر الملك على ما حدث، فوافق الأمير العربي على ألا يحال بين الفتاة الفرنسية وزيارة صديقها، ولا بين طاهر الطرطوسي والتردد على قلعة سان جيل..

وجاء طاهر إلى القلعة ذات يوم ومعه أخته زينب، ثم عاد ثانية فثالثة فرابعة، ونشأت بين الفتاة المسلمة والفتاة المسيحية علاقة صداقة متينة توثقت عراها مع الأيام. فصارت "روز" لا تطيق صبراً على غياب زينب، وزينب لا تطيق صبراً على غيبا روز، وطاهر لا يشعر بالسعادة تغمره والهناء يملأ صدره، إلا عندما يجد نفسه بين الفتاتين مجتمعتين معه، الأخت التي تولت تربية أبنائه، والغريبة التي انتزعته من مخالب الهلاك!

وتزوجت زينب شاباً من فرسان الحرس بقصر بني عمار، فدعيت صديقتها الفرنسية لحضور حفل العرس في منزل طاهر، الجاثم بين أشجار النارنج والبرتقان، في البساتين المحيطة بطرابلس، وكانت زينة الحفلة أغصان تلك الأشجار الخضراء وأزهارها الناصعة البياض إذ غطيت بها الجدران وفاحت رائحتها المسكرة فملأت جوانب الدار. وأديرت على المدعوين أكواب الشربات، وأطباق الحلويات، وقماقم العطور، وكلها مصنوعة من أزهار النارنج والبرتقان. في المدينة التي تعد موطن هذه الأشجار المختار، وجنانها الفيحاء...

وفي مطلع سنة ١١٠٥ للميلاد، الموافقة لسنة ٤٩٨ للهجرة، فاضت روح ريمون دي سان جيل، سيد القلعة وقائد الصليبيين فيها، وفقدت روز بايو سندها ومعينها، فقررت العودة إلى وطنها فرنسا، للقاء خطيبها في مدينة بوردو.

وكان وداع أصدقائها العرب مؤثراً أسال من ألماً في الدموع. فقد بكت روز بايو، وبكى طاهر الطرطوسي وأبناؤه الصغار، وبكت أخته زينب وزوجها، لفراق الفتاة التي كانوا جميعاً يعدونها عضواً من أسرتهم. وعندما صافح طاهر صديقه ومنقذته. قال بصوت متهدج:- إن في الصدر أشياء يا روز لا يجرؤ اللسان على الإفصاح عنها. لأنها صعبة التحقيق. فالأفضل أن أكتم سري بين الضلوع!

فأجابت الفتاة بصوت متهدج – مثل صوته-: أن تلك الأشياء التي يختلج بها صدرك يا طاهر، يتردد صداها في صدري أيضاً. ولكنني أكتم مثلما تكتم أنت .. فإن الأقدار التي جمعت تأبى إلا أن تفرق. ولن أنسى ما حييت، أصدقائي في طرابلس وحدائقها الغناء. وأزهار البرتقان فيها!..

قال طاهر:- لهذا – سنحملك أيتها الصديقة الوفية، قوارير من حلوى الزهر "وشراب الزهر" وماء الزهر، وأغصاناً من برتقاننا بأزهارها اليانعة، فهي في عرفنا رمز الرخاء والسعادة والجمال"!.

لم تشهد مدينة بوردو عيداً أجمل من ذلك العيد، ولا عرساً أوفر بهجة من ذلك العرس. فقد توافد السكان جميعاً على ساحة الكنيسة لمشاهدة العروس القادمة من الشرق، والتي ظل ابن عمها وخطيبها "شارل بايو"

ينتظر عودتها بضعة أعوام. وقد أبت العروس إلا أن تكون أغصان البرتقان وأزهاره زينة تلك الحفلة، فحملوا إليها أكواماً منها. جاءوا بها من البساتين التي غرسها العرب في جنوب فرنسا والتي نقلت أشجارها من الأندلس.

وضعت "روز" على رأسها إكليلاً من أزهار البرتقان، وضعت بين أناملها باقة منها، وعندما رفع الكاهن يده ليبارك زواجها، انحدرت من عينيها لؤلؤتان ناصعتان سقطتا على تلك الباقة فارتشفتهما أزهارها البيضاء.

ومنذ ذلك الوقت، انتشرت في فرنسا، ثم في بلدان الغرب كلها، عادة وضع أكليل من زهر البرتقان على رأس العروس، وباقة منه في يدها، وأصبح ذلك الزهر الأبيض العطر، رمز الطهر والعفاف، في نظر الغربيين منذ عهد الصليبيين واختلاطهم بالعرب حول مدينة طرابلس الفيحاء، موطن النارنج والبرتقان.

الأسماك المقدسة

مدينة طرابلس بلبنان لا تزال تباهي بأسماكها المدللة. فهي لا تخاف الناس، بل تنظر إليهم بعيون كأنها عيون البشر: إنها واثقة من أن إنساناً ما لن يفكر في إيذائها!

وقفت الحسناء "سهام" على حافة البركة تضحك للأسماك وتداعبها، وهي تلقي إليها بالحبوب وفتات الخبز والدود الصغير الذي جمعته خصيصاً لها من حول البساتين.

كلها أليفة. لا تهرب من خيال ولا تغوص في الماء إذا امتدت يد نحوها ولامستها. تنظر إلى الناس بعيون كأنها عيون بشرية. فهي تعرف – لأن للأسماك ذكاء خاصاً بها – أن لا أحد من أهل المدينة ولا من الأغراب الزائرين يفكر في إيذائها أو يضمر لها غير العطف والرغبة في مدها بالغذاء.

أن مدينة "طرابلس" الميناء الرابض على ساحل البحر في ظلال جبل لبنان الشمالي، تفاخر بأسماكها وتباهي، وأهل المدينة يرعونها بعنايتهم ويحيطونها بالخرافات والأساطير – وكثيراً ما تلتقي الأساطير والخرافات بوقائع التاريخ الثابتة الأكيدة!

فقد تناسلت هذه الأسماك وتكاثرت وتوالدت جيلاً بعد جيل، منذ

عهد الفينيقيين أرباب البحار. يوم كانت طرابلس أحد الموانئ التي تنطلق منها سفنهم لكشف المجاهل وربط الأقطار بعضها ببعض.

كان الفينيقيون يعنون بتربية الأسماك ويقدسونها. وقد بنوا لها في موانيهم البرك والأحواض، التي كانت في ذلك الوقت بمثابة حدائق الحيوانات في عصرنا الحاضر.

وبانقراض الفينيقيين، انقرضت أيضاً أسماكهم المقدسة من الموانئ، ما عدا تلك الأسماك التي بقيت مدينة طرابلس محافظة عليها خلال القرون المتعاقبة، وبالرغم من تدفق الغزاة عليها فوجاً بعد فوج.

تلك هي الأسماك التي وقفت "سهام" على حافة البركة تلقي إليها بالدود والخبز والحبوب..

ووقف أبوها "عامر الصفواني" يرمقها بناظريه من باب البيت القريب. ولما طال انتظاره، خاطبها قائلاً:

- كفاك اهتماماً بالسمك اليوم بإسهام. فابن عمك "طالب" ينتظر في الداخل مع أمك، لمواصلة الحديث الذي بدأنا به. وقد تحمل مشقات كثيرة في طريقه إلينا.

"طالب الصفواني" هو ابن أخيه. جاء من دمشق إلى طرابلس لزيارة عمه وأسرته، وهو يرغب في أن تصبح سهام زوجته. وعمه موافق على هذا الزواج. وامرأة عمه موافقة أيضاً. والفتاة لا ترفض ولكنها تشترط عليه بأن ينتقل من دمشق ليقيم معها في طرابلس، فهي مصرة على ألا تفارق أهلها، وعلى أن تبقى أيضاً قريبة من الأسماك الحبيبة إلى قلبها!

ردت على أبيها بصوت كله نعومة وحنان:– لقد انتهيت من إطعام الأسماك يا أبي. وها أنذا قادمة إليه. ولكن، هل وافق ابن عمي على الشرط الوحيد الذي اشترطته عليه؟

فأجاب الأب:

– وافق يا ابنتي! وافق بعد تردد طويل. وهذا ما يسعدني، كما يسعدك بلا شك!

فهرولت الفتاة مسرعة إلى الدار!

كان يحكم طرابلس في ذلك الوقت أمراء بني عمار العرب. ويعتمدون على سلاطين مصر في مساعدتهم لحماية المدينة من خطر هجوم الإفرنج عليها.

كان أول من تولى الحكم من أولئك الأمراء الشجعان، أبو طالب عمار، في سنة ١٠٧١ للميلاد، الموافقة لسنة ٤٦٣ هجرية. وظلت سلالته تحكمها ثمانية وثلاثين سنة.

أنشأوا فيها مكتبة زاهرة بالمؤلفات والوثائق، جلبوها من الشرق ومن الغرب على السواء من الهند وبغداد ودمشق والقاهرة والأندلس، فطبقت شهرتها الآفاق وقال الناس في ذلك الوقت أن طرابلس تباهي بمفخرتين: مكتبتها، وأسماكها!

وعهد بنو عمار، في سنوات ولايتهم الأخيرة، إلى عامر الصفواني من اللاذقية، بحراسة المكتبة الثمينة والعناية بمحتوايتها، وعهدوا في آن واحد

إلى ابنته سهام في حراسة الأسماك وضمان سلامتها من العبث، وذلك نزولاً على رغبتها وإجابة لإلحاحها.

فقد رأت الفتاة في الحلم أن سمكة خرجت من البركة وخاطبتها قائلة لها بلغة سليمة: "كوني أيتها الحسناء حارسة علينا فإن في هذا ما يجلب لك السعادة والهناء، ولكن إياك أن تمتد يدك إلينا بالأذى!

حلم رأته الفتاة في نومها فحققه بنو عمار. وأقام عامر الصفواني مع زوجته وابنته في بيت شيده له الأمراء العماريون بجوار بركة الأسماك وانصرف هو إلى حراسة المكتبة، وانصرفت ابنته إلى حراسة الحيوانات الأليفة..

وكانت سهام تعتقد، كما يعتقد أهل المدينة الزاهرة كلها، أن في تلك الأسماك بركة وخيراً كثيراً، فإن لم تكن لها صبغة التقديس، كما كان يؤمن الفينيقيون الوثنيون، فإن لها على كل حال صبغة الاحترام والإجلال، التي أسبغتها عليها الأساطير، فأصبحت جزءاً من تاريخ المدينة، بل بيئة حية من بيئات سكانها العاملين النشطين.

ولما أراد عامر الصفواني أن يزوج ابنته الوحيدة، واختار لها ابن أخيه طالب الصفواني من دمشق، جفلت الفتاة في بادئ الأمر، خوفاً من أن يضطرها زواجها إلى الافتراق عن أسماكها الحبيبة. ولكنها فكرت في الأمر وأدركت أن ذلك الزواج يروق في عين والدها ووالدتها العزيزين عليها، فوافقت، ولكن على ذلك الشرط الذي فرضته وأصرت عليه.

وتم الزواج وانتقل طالب إلى طرابلس واستقر في بيت عمه مع

عروسه، وأقام لهما أهل المدينة مهرجاناً حول بركة الأسماك، على دق الدفوف وأنغام المزمار!

في سنة ١٠٩٨ للميلاد، الموافقة لسنة ٤٩١ للهجرة، وفي خلال الحرب الصليبية الأولى، أنشأ الإفرنج دولة في بيت المقدس، وإمارات متناثرة في أنحاء الديار الشامية. وجعلوا يتطلعون إلى طرابلس التي اعتصم فيها بنو عمار، ويعدون العدة للاستيلاء عليها، وضمها إلى الإمارة التي أطلقوا عليها اسم "الإمارة اللبنانية".

كانت المواقع والقلاع والحصون العربية والأفرنجية متقاربة متشابكة، وكان الصراع بين الطرفين على أشده. فريق يعمل لتثبيت مركزه، وفريق يعمل لاسترجاع ما فقد أو على الأقل للاحتفاظ بما لم يفقده بعد.

رسم الكونت ريمون دي تولوز، أحد أقطاب الصليبيين ومنشئ الإمارة الإفرنجية على ساحل لبنان، خطة الاستيلاء على طرابلس لجعلها عاصمة لإمارته، ولكنه مات قبل أن يحقق حلمه، وترك هذه المهمة لمن خلفوه في الحكم، وترك لهم أيضاً قاعدة حصينة للهجوم وهي القلعة التي شيدها على سفح الجبل المطل على طرابلس؛ وأطلق عليها اسم "سان جيل" وعرفها العرب باسم "قلعة سنجل".

في صيف سنة ١١٠٩ للميلاد، الموافقة لسنة ٥٠٢ هجرية قرر الإفرنج مباشرة الهجوم على المدينة، بعد أن ضربوا حولها الحصار مدة طويلة، ولكنه كان حصاراً مانعاً، لم يمنع بني عمار من مواصلة الاتصال بأصدقائهم وحلفائهم خارج المدينة.

توالت النجدات على الإفرنج من كل صوب، فأرسل بودوان الأول ملك القدس كتيبة من الفرسان، وفعل مثله الأمراء والحكام الآخرون، وانضم إلى المحاصرين بحارة من جنوي، ووصلت أمام الميناء عشرات من السفن تحمل الجنود ومعدات القتال، وأدرك بنو عمار وسكان المدينة أن المعركة الفاصلة قد دنت.

دقت الطبول وانتشرت الحامية في الأسواق. وعززت مراكز الدفاع على الأسوار والأبراج.

لكن تفاوت القوات من الجانبين كان في مصلحة المهاجمين لا في مصلحة المدافعين. وكانت نتيجة الصراع معروفة قبل أن يبدأ الهجوم ويقابله الدفاع.

المجانيق التي دكت الأسوار والأبراج. لا كثرة عدد المهاجمين ولا شجاعتهم، كانت العامل الأول الذي انهارت أمامه المقاومة.

تفاوض الفريقان في تسليم المدينة ووضع حد لإراقة الدماء. واتفاقاً على الشروط: يحق لجنود الحامية ولسكان المدينة أن يخرجوا منها بأسلحتهم وأموالهم ويذهبوا إلى حيث يشاءون، أو أن يبقوا فيها فتصان ممتلكاتهم ولا يلحق بهم أذى ولا يعاملون بعد احتلال المدينة معاملة المغلوبين على أمرهم.

على هذه الشروط فتحت الأبواب ودخلت القوات الإفرنجية مدينة طرابلس، في اليوم الثاني عشر من شهر يوليو – تموز – سنة ١١٠٩ حافظ بودوان ملك أورشليم، والكونت برتران. صاحب قلعة سان جيل

على شروط التسليم، واحترموا العهود المقطوعة. ولكن البحارة الجنوبيين خانوا العهود وخرقوا الشروط!

تدفقت جموعهم الهائجة على المدينة من الميناء، وانطلقت تحرف وتنهب وتسلب وتعتدي على الأرواح وتسوق فريقاً من السكان أسرى إلى السفن الراسية تجاه الشاطئ.

الحوانيت أفرغت من السلع المكدسة فيها. والمخازن اقتحمت وتبدد ما فيها من مؤن وأدوات. والبيوت انتهكت حرمتها وأحرقت محتوياتها. وساد الرعب وعمت الفوضى. واضطر الملك بودوان أن يطوف بنفسه في أرجاء المدينة المنكوبة. ليوقف عند حد أولئك البحارة الذين انقلبوا لصوصاً، ويعيدهم إلى سفنهم التي غصت بالأسلوب والمنهوبات.

ظن بنو عمار أن تسليم المدينة صلحاً ينقذها من الخراب، فكانت النتيجة كارثة لا تقل هولاً عن سقوطها في معركة طاحنة!

ومما اقترفه البحارة الجنويون في ذلك اليوم الرهيب، حرق مكتبة بني عمار. فقد أتت النار التي أشعلتها أيديهم الأثيمة على تلك الثروة الضخمة، وخسر العالم كنوزاً ذهنية لا تقل عن الكنوز التي خسرها بضياع مكتبة الإسكندرية قبل ذلك الوقت ببضعة قرون، يوم أحرقها الرهبان في فتنة من فتنهم، قبل الفتح العربي، ثم جاء المؤرخون المغرضون وألصقوا بالعرب تهمة إحراقها!.

حول البركة التي تسبح فيها الأسماك المقدسة، تجمع فريق من البحارة الثائرين. وراحوا يتسابقون في اصطيادها، وهي الأليفة الوادعة، التي

تعودت التقاط طعامها من أيدي الزائرين!

وأشعل الأجلاف ناراً وألقوا عليها الأسماك التي اصطادوها! وكان أفراد أسرة الصفواني قد اجتمعوا في بيتهم، بجوار البركة. فقد تلقى عامر أمراً من بني عمار بأن يترك المكتبة بدون حراسة، وأن يصرف الجنود والعمال القائمين على صيانتها، اعتقاداً من الحكام بأن المهاجمين لن يعتدوا على ذلك الصرح العلمي، ولن يمسسوا بسوء مصدراً من مصادر الإشعاع الفكري في ذلك الزمن!

وأصيب عامر الصفواني بما يقرب من الجنون، لما رأى الدخان يتصاعد في فضاء المدينة، وبلغه خبر العدوان الأثيم وإضرام النار في المكتبة القيمة..

وارتاعت سهام وطار عقلها، لما شاهدت من ناحيتها ذلك الجمع من الأعداء يعبثون بأسماكها الحبيبة المدللة، ويشوونها على النار ويأكلونها مقهقهين.

هرولت إليهم صائحة فيهم: "خذوا حذركم: فإن هذه الأسماك مقدسة، لا ينجو من يعتدي عليها من غضب السماء، ولا يفلت من مفعول الآيات السحرية الكامنة في جوفها منذ أقدم العصور، قبل أن يبشر الرسل والأنبياء بالأديان السماوية!".

نظر البحارة إلى تلك الحسناء البادية أمامهم زائغة البصر محلولة الشعر غاضبة ثائرة. وكفوا عن مواصلة العبث بالأسماك الطاهرة، وارتفع من بينهم صوت يطلب شراباً..

وخطر للمرأة خاطر..

إشارات إلى أبيها وأمها وزوجها. وقد لحقوا بها مرتاعين، وقالت:

- هاتوا لهؤلاء الأغراب ما عندنا من طعام وشراب، ليتذوقوا ما تعده أنامل الطرابلسيات البارعات، لإبطال الحروب الصناديد!

دخل أفراد الأسرة إلى البيت، ثم خرجوا ثانية، حاملين ما لذ وطاب!

كانت المأدبة فاخرة..

دارت الأطباق والطاسات والقوارير والأقداح والأباريق على الجنود القزحين الضاحكين، بما فيها من حلوى ومربات، وماء الزهر وشراب الورد وعصير النارنج والبرتقان.

فالتهموا بشراهة، وشربوا بلا وعي!

وما انقضى قليل من الوقت، حتى كانت الأصوات قد خفتت، والضحكات قد تلاشت وأعقبتها أنات وتأوهات تنبعث من صدور خمسين رجلاً تفارقهم الحياة شيئاً فشيئاً، ويعانون حشرجة الموت.. ويصبحون جثثاً هامدة!

أتوا على كل ما حملته إليهم الأسرة من طعام وشراب، ولكن لم يبق منهم واحد حياً ليصف إذا كان الطعام لذيذاً والشراب منعشاً!

وتجمع الناس حول الجثث المتراكم بعضها على بعض عرب مقيمون وأفرنج وافدون، وسرت بين الصفوف كلمات تناقلتها الأفواه فانتشرت بسرعة في المدينة كلها: "البحارة الجنويون اعتدوا على الأسماك المقدسة

وأكلوا لحومها مشوية، فانتقمت الأسماك من آكليها!".

عاد الهدوء إلى طرابلس بعد تلك المحنة. وانتقل الحكم فيها من بني عمار إلى الإفرنج. ورحل عنها فريق من أهلها أبوا أن يخضعوا لحاكم أجنبي، وبقي فريق أبوا أن يغادروا الأرض التي انطوى ترابها على رفات الآباء والأجداد.

كان عامر الصفواني وزوجته، وطالب الصفواني وزوجته، بين الذين آثروا البقاء على الرحيل..

واحترم الإفرنج مشاعر السكان فصانوا الأسماك وعهدوا إلى سهام بمواصلة السهر عليها وحراستها، واعتقدوا أن قوة خفية كامنة فيها، منذ عهد الفينيقيين الأقدمين، وأن الأساطير قد تكون أقرب إلى الحقائق مما يتصور الناس!

ولكن السكان أنفسهم، الذين أحبوا أسماكهم وأحاطوها بالعناية وتناقلوا الخرافات عنها جيلاً بعد جيل، وأشاعوا أنها انتقمت من البحارة الجنويين الذين انتهكوا حرمتها، أولئك السكان تهامسوا فيما بينهم بالحقيقة التي عرفوها وخفيت عن الإفرنج..

فإن حارس المكتبة عامر الصفواني وأفراد أسرته قد خلطوا الحلوى والمربات والشربات التي قدموها للبحارة الأغراب، بالسم الذي كان عامل يعده لقتل الجرذان والفئران وإفناء الحشرات في قاعات المكتبة ودهاليزها وأقبيتها، فأهلك دفعة واحدة خمسين من أولئك المعتدين، وثار بذلك للمكتبة التي أحرقت، وللأسماك التي التهمت، خمسين من شهداء طرابلس

الذين غدر بهم البحارة الجنويون بالرغم من العهد المقطوع!

وحكم الإفرنج مدينة طرابلس مائة وثمانين سنة، واسترجعها منهم الملك المنصور قلاوون في سنة ١٢٨٩ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٨٨ هجرية، يوم كانت سورية ومصر تؤلفان دولة واحدة، في عهد سلاطين المماليك.

والذين يزورون طرابلس اليوم، وهي عاصمة لبنان الشمال، يرون الأسماك المقدسة تتلاعب وتتماوج في بركتها الواسعة، والناس من حولها يلقون إليها الطعام، كما كانت تفعل سهام زوجة طالب الصفواني، في عهد بني عمار الكرام!

أبو الجراح



الأبطال الشرفاء يحرصون على ما يسميه المؤرخون "آداب الحروب!"

كانت المعركة على أشدها، ومياه نهر العاصي المصبوغة بالدم تجرف جثث القتلى في تيارها. وقد آذنت الشمس بالغروب دون أن ترجح كفة أحد الفريقين المتقاتلين.

وكان "مودود" – صاحب الموصل – يحث فرسانه على شق طريقهم نحو جيش الصليبيين لمنعه من الارتداد في اتجاه معاقله، وعيناه شاخصتان إلى ناحية معينة من الميدان، طلب إليه حلفاؤه الأمراء أن يحول دون تسلط العدو عليها لحماية مؤخرته. وفأر فائره وهو يرى رجاله يتقهقرون عن هذه الناحية. وحداناً وجماعات، أمام فارس صليبي واحد، فصاح بهم:

– ألا أجد بينكم نداً لهذا الفارس، يجيئني به حياً أو ميتاً؟

فاندفع عشرات آخرون اندفاع الريح الهبوب، نحو المنفذ الذي كان الصليبي يحميه بمفرده. ولكن وثبتهم تحطمت كما تتحطم الموجة على صخرة الشاطئ. وظل ذلك البطل المجهول يتلقى ضربة ويوجه عشراً، دون أن يفوز به أحد، أو يتزحزح قيد شبر عن مكانه!

لم تكن معركة شيزر من المعارك الفاصلة بين المسلمين والصليبيين ولكنها كانت محكاً لقوة هؤلاء وقوة أولئك، وقد أرادها كل من الطرفين تجربة لعجم عود الآخر، ومعرفة قدرته على الكر والفر والجلد على القتال.

تحالف أمراء الإفرنج في سورية ولبنان من جال طوروس إلى حدود مصر، وعزموا على التوغل شرقاً نحو الفرات. وقابلهم أمراء العرب والأعجام بمحالفة جمعت تحت لواء وأحد أصحاب دمشق والموصل وحلب وشيزر وغيرها من الديار والأمصار، والتقى الجيشان على ضفاف نهر العاصي، بالقرب من قلعة شيزر، في الخامس عشر من شهر سبتمبر – أيلول – عام ١١١١ – للميلاد الموافق لعام ٥٠٤ للهجرة ودارت رحى القتال، فشهدت تلك البقعة – التي اختارتها الأقدار بين بقاع سورية لتكون على مر الأجيال مسرحاً للحرب والنزال حلقة أخرى من حلقات البطولة والشهامة، التي امتازت بها تلك الحقبة من التاريخ.

لم تسفر المعركة عن نتيجة حاسمة، وعزم كل من الجيشين المتحاربين على التراجع إلى المواقع الحصينة التي اتخذها قاعدة لزحفه، وكان جيش الصليبيين البادئ في الارتداد غرباً. فشجع ذلك جيش المسلمين على تعقب مؤخرته، ومضايقة فرسانه في انسحابهم، بإمطارهم وابلاً من السهام، ومحاولة الالتفاف حول أحد جناحيه خط الرجعة عليه.

في تلك المرحلة من المعركة، وقع الحادث الذي أبدى فيه ذلك الفارس الإفرنجي ضرباً من ضروب الشجاعة والبطولة تحدثت به الركبان وأثار إعجاب المسلمين وخصومهم على السواء.

ذلك هو الفارس الذي دعا مودود صاحب الموصل رجاله إلى زحزحته عن طريقهم، والذي أوقف المهاجمين في وثبتهم إلى الأمام ما يكفي من الوقت لكي تصبح مؤخرة الصليبيين في مأمن من خطر التطويق!

هاجمه رجال مودود جماعات جماعات، فقتل حصانه، وأصيب بجراح عدة جعلت جسمه قطعة متحركة حمراء قانية. وجندل حوله الأبطال فكان يحتمي خلف أشلائهم ويواصل المقاومة والدفاع، حتى أدرك في النهاية أن الخطر قد زال عن رفاقه، فوثب على ظهر جواد سقط فارسه في الميدان، وانطلق يعدو مسرعاً ليلحق بقومه، تاركاً وراءه آثاراً من دمائه المتدفقة.

وعاد رجال مودود إلى قائدهم يقولون:

– هذا شيطان على ظهر حصان!

ومرت أسابيع. وكان كل من الفريقين يعد العدة لاستئناف القتال، متخيراً له ميداناً صالحاً، محاولاً أن يجر إليه الفريق الآخر بالتحدي أو الخديعة. وفي ذات مساء، وصل أمام أسوار شيزر فارس غريب، حاسر الرأس؛ يلتحف بمعطف الشرقي، يحمل عدة القتال معلقة في سرج حصانه. وقال للحارس الذي صده عن باب القلعة، أنه جاء برسالة إلى صاحبي شيزر، الأميرين: سلطان، ومرشد.

ومثل الرجل أمام الأميرين الأخوين، فانحنى احتراماً وإجلالاً ودفع إليهما رقعة سطرت فيها هذه الكلمات:

"من ثنكريد أمير أنطاكية، إلى البطلين العظيمين سلطان ومرشد صاحبي شيزر. سلام – أن الرجل الذي ينقل إليكما هذه الرسالة فارس

إفرنجي مكرم، جاء إلى الأرض المقدسة لزيارة قبر الشهيد المسيح. وهو الآن يعتزم العودة إلى بلاده وذويه، بعد أن وفى نذره: وقد أبدى رغبته في أن يزوركما ويحيي رجالكما الشجعان الذين حاربهم في الميادين. وهأنذا أجيبه إلى طلبه. وأوصيكم به خيراً".

طويا الرقعة، وأمعنا في النظر إلى الرجل: أنه في نحو الأربعين من العمر، شديد البنية، مفتول الذراعين، حاد البصر، في وجهه ويديه آثار جروح عدة، أبرزها شجة فظيعة تمتد من جبينه إلى فمه، مارة بين العينين وسط الأنف والشفتين، تجعل ذلك الوجه على جانب عظيم من القبح والتشويه، وتثير في الناظر إليه شعور الرهبة الممزوجة بالاشمئزاز!

قال سلطان:

– أهلاً بك يا أخي، أنت هنا بين أناس يجلون الشجاعة والبطولة! وقال مرشد:

– أنت ضيفنا لبضعة أيام. وسيقابلك رجالنا بما أنت جدير به من محبة وإعجاب وإكرام.

وأضاف الإخوان معاً

– ما اسمك!

فأجاب الغريب بلغة عربية نطقها بلهجة أبناء البلاد:

– أن الاسم الذي كنت أحمله عندما جئت إلى الشرق منذ عشرة أعوام قد أصبح نسياً منسياً. فرفاقي أنفسهم لا يعرفونه، وقد أوشكت أنا

أيضاً أن أنساه. فأنا عند الصليبيين "أبو الجراح" وقد أوحت إليهم بهذه التسمية مئات الطعنات التي تلقيتها في الميادين، وليست الطعنات التي أصابتني في معركة "شيزر" بأقلها خطراً!

فانتفض الإخوان، وقالا معاً:

– شيزر؟ .. أأنت رجل شيزر؟ أأنت رجل المضيق؟

– نعم، أنا هو .. لقد وقفت في وجه رجالكم لإنقاذ مؤخرة جيشنا، فتم لي ما أردت، ولكنني حفظت في أعماق نفسي ذكراً لا يمحي لأولئك الذين نازلتهم وتبادلت معهم أروع الضربات التي عرفتها في حياتي. وما جئت إلى هنا إلا لأصافحهم وأعانقهم، وأطلب إليهم أن يحفظوا لي أيضاً ذكراً طيباً في نفوسهم. إنني عائد إلى وطني بعد أن زرت قبر المسيح وقبلت الأرض التي وطأتها قدماه، وبكيت في المراحل التي اجتازها إلى قمة جبل الجلجلة. وساهمت في الحروب طيلة عشرة أعوام بلا انقطاع، فلاقيت فيها أبطالكم، وعرفت في خلالها لذة النصر ومرارة الهزيمة. ولذلك جئت أحييكم تحية الشجاع للشجعان. قبل أن أرحل عن هذه الأرض التي أحببتها.

فوقف سلطان ومرشد، ثم دعيا رجال الحامية في الحصن إلى الشخوص خارج الأسوار، وأخذ الفارس الغريب كل منهما بيد، وطلبا إليه أن يلبس درعه ويتقلد سيفه ويضع خوذته الفولاذية على رأسه، ويعرض معهما صفوف الأبطال الذين جاء يحييهم، فردوا إليه التحية بأطيب منها، رافعين السيوف فوق رءوسهم هاتفين للفارس المغوار الذي خبروا بأنفسهم حسن

بلائه في الميادين!

وقضى الرجل ثلاثة أيام في الحصن ضيفاً على الأخوين سلطان ومرشد. ثم عاد من حيث أتى، وانقطعت أخباره عن الناس أجمعين. ولكن أعماله قد دونت في سجلات البطولة. فذكره الإفرنج فيها باسم "أبو الجراح" تمجيداً للإصابات العديدة التي مزقت جسمه دون أن تقضي عليه، وذكره العرب باسم "الفارس الأشج" نسبة إلى الشجة الكبيرة التي أحدثها فيه أحد فرسانهم، في معركة شيزر.

يد تحرك.. ويد تضرب!

قصة قاتل لم يقتل، وفائز بجائزة سباق ثم يشترك فيه، وصاحب فضل ثم يتفضل على أحد بشيء.

قالت "الكونتس هودين" وهي تشير بيدها إلى كيس ملقى على الأرض بجوار مقعدها:

- خذ يا جندل: هذا هو المبلغ الذي اتفقنا عليه. فوزع منه على شركائك ما شئت، واحتفظ بما شئت. فليس لي أن أتدخل في التفاصيل. وإنما الذي يهمني أولاً وأخيراً، أن تكون قد أعددت للأمر عدته، وأن يتم كل شيء وفاقاً للخطة التي رسمناها. فهل يمكنني الاعتماد عليك؟

وأجاب "جندل" وهو يمد يده لأخذ الكيس:

- كل شيء سائر على ما يرام يا مولاتي، فسافري بسلامة الله مطمئنة النفس مرتاحة البال..

- ولن يعرف أحد ما دار بيننا من حديث، وما تم من اتفاق؟..

- وهل شاهد اجتماعنا يا مولاتي، أو سمع حديثنا، غير الله وحده؟

- إن الله يا جندل لن يحاسبني على ما أنا عازمة عليه. فإن بقاء الكونت

زوجي على قيد الحياة لمجلبة لمشكلات لا حصر لها ولا حد، لي ولهذه الإمارة ولكم جميعًا. ثم إن الله يحاسب الفاعل على ما يفعل.

وأما أنا فسأكون بعيدة عن المدينة عندما يضرب أصحابك ضربتهم.. وأرجو أن تكون صائبة!

– وستكون الضربة كما ترغبين يا مولاتي!

– إلى اللقاء إذن. ولتكن أيامك سعيدة يا جندل، بقدر ما أرجو أن تكون أيامي في المستقبل سعيدة أيضًا!..

عاد "جندل بن عون" من قصر "الكونت ريمون الثاني" صاحب طرابلس، إلى بيته الصغير الكائن على المرفأ، وعلى محياه إمارات الغبطة والارتياح. وطلب من زوجته أن تغلق الباب وتوصده بالمزلاج، ثم دفع إليها بكيس كان يخفيه في طيات ثوبه العربي الفضفاض، وقال بصوت خافت:

– خذي يا امرأة!.. خذي، بل اغترفي من هذا الكيس ملء قبضيتك مرة بعد مرة، فقد أصبحنا عند طلوع الشمس اليوم فقراء، ولكننا أمسينا عند غروبها من كبار الأغنياء!

كان الكيس مملوءًا ذهبًا وفضة، وشعرت الزوجة بأن الأرض تميد تحت قدميها، وأن البيت يدور بها، ولكنها تمالكت نفسها وتمتمت سائلة:

– من أين لك هذا يا جندل؟ هل سرقت؟ هل قتلت؟ هل ورثت؟

فأجاب الزوج ضاحكًا:

– لا قتلت ولا سرقت ولا ورثت. وكل ما صنعت أنني تعاقدت مع جماعة

من العظماء على عمل تعهدت بإنجازه، وهذا هو الأجر الحلال!

وألحت المرأة على زوجها بأن يفضي إليها بالتفاصيل، ويقص عليها ما جرى بينه وبين أولئك العظماء الذين جعلوه ينتقل فجأة من طبقة الفقراء إلى مصاف الأغنياء، لكي تفرح لفرحه، وتشاركه السراء بعد إن شاركته الضراء..

وتجاذب الرجل دافعان: دافع الحرص على السر الذي طلب منه كتمانه، ودافع التفريج عن نفسه باطلاع زوجته المحبوبة على ذلك السر..

وتغلبت المرأة – كعادة المرأة – على الرجل بالإلحاح والدلال والإغراء، فقال جندل:

– اجلسي، وسوف تعلمين كل شيء!

كان جندل بن عون، وهو من عرب "الرها" يعمل في قصر الكونت ريمون كخبير في تربية الخيول العربية. وكانت زوجته "يانسون" تقوم بأعباء البيت وتعني بأطفالها الثلاثة. ولكن الكونت كان يجهل أن الرجل الذي وضع فيه ثقته، وائتمنه على خيوله، لم يكن أهلاً للثقة والأمانة. فإن جندل بن عون كان في الواقع رسولاً من رسل الملك العادل نور الدين بن محمود زنكي صاحب حلب، أوفده للتجسس على الأمراء الصليبيين في معاقلهم وحصونهم وولاياتهم، فاستقر بجندل المقام في مدينة طرابلس، عاصمة الإمارة التي أنشأها الكونت: "ريمون دي تولوز" في لبنان، في خلال الحملة الصليبية الأولى، والتي آلت إلى ورثته من بعده.

وكانت "يانسون" على علم بنشاط زوجها المزدوج، لا تعارض فيه ولا

تعرقله، بل تعاون زوجها وتشجعه، لأنها من سلالة أمراء بني عمار، أصحاب طرابلس قبل أن ينتزعها منهم الصليبيون ويقصوهم عنها..

وكان ريمون الثاني على خلاف مع زوجته "هوديرن"، شقيقة الملكة "مليزاند"، أم الملك "بودوان الثالث" الجالس على عرش الدولة الصليبية في بيت المقدس. فقد اتهم الكونت زوجته الكونتس بأشنع التهم، وانقسمت الرعية إلى فريقين: فريق يؤيد الرجل وفريق يؤيد المرأة. وكانت المنازعات العائلية في ذلك الوقت قد اتسعت وتفاقمت بين أقطاب الصليبيين، فخشى الملك بودوان الثالث على دولته من التضعضع والانهيار، أمام هجمات خصومه المسلمين من الشمال والشرق والجنوب، فعول على القيام برحلة إلى عواصم الأمراء أتباعه، وبذل مساعيه لإحلال الوئام محل الخصام. سواء أكان ذلك في العلاقات بين أمير وأمير، أم بين أفراد الأسرة الواحدة..

وخص الملك مدينة طرابلس بأول زياراته، فشخص إليها مع أمه الملكة مليزاند، على أمل أن يتمكن معها من إعادة المياه إلى مجاريها، بين خالته هوديون وزوجها ريمون..

أما هوديرن. فإنها لم تكن على استعداد أكثر من زوجها لتقبل الإرشاد والعمل بنصائح الملك وأمه، لاعتقادها أن الحياة تحت سقف واحد من زوج غيور شرس عربيد، ستكون سلسلة لا نهاية لها من المتاعب، وأنها سوف تختم بكارثة، إن آجلاً أو عاجلاً..

وكان هذا اعتقاد الزوج أيضاً، بالنسبة إلى زوجته، التي كان يتهمها بما

تتهمه به من غيرة وشراسة وعربدة...

ولما اتضح للملك بودوان وللملكة مليزاند أن الوفاق بعيد المنال بين الكونتس هوديرن والكونت ريمون، قر رأيهما على عقد مهادنة بين الاثنين، ريثما يستعيد كل منهما رشده، ويمعن التفكير فيما يجره الخلاف عليهما وعلى أمارتهما من عواقب وخيمة. واقتنع الكونت بأن تسافر زوجته مع أختها إلى بيت المقدس، فتقيم مدة من الزمن هناك، ويبقى الملك في طرابلس ضيفاً على تابعه، ثم يواصل رحلته شمالاً، ويستأنف الجميع البحث في أمر العلاقات بين الزوج وزوجته بعد عودة الملك من طوافه..

واستعدت هوديرن للرحيل مع أختها. ولكنها في آن واحد عزمت على التخلص من زوجها بحيث يجد الملك نفسه أمام الأمر الواقع، فلا يحمل في المستقبل مشقة السعي والوساطة!

ولهذا الغرض، دعت الكونتس هوديرن عروض الخيول جندل بن عون، وهو مدربها الماهر على أعمال الفروسية وضرب السيف..

وكان حديثها مع الرجل صريحاً واضحاً لا غموض فيه:

– أنت عربي يا جندل. وزوجتك عربية. وهذه الإمارة كانت عربية من قبل فاغتصبتها أسرتي. وإذا كنت الآن واحداً ممن يخدمون زوجي الكونت، فلأنه يدفع لك الأجر الذي تريد. ولأنك تتأمل، مثل غيرك، أن ترجع هذه الإمارة عربية.. كما كانت..

– أنك تعلمين يا مولاتي..

– لا تقاطعني يا جندل. فإنني أقرأ ما يجول في خاطرك، وهذا لا يعني أن أمنيتك سوف تتحقق، وأن إمارة طرابلس ستنتزع منا كما انتزعناها نحن من الغير.. ولكنني أعرض عليك أمراً فيه مصلحتك، وفيه مصلحتي، وفيه أيضاً مصلحة قومك ومصلحة قومي!.. وقد يبدو لك أن ما أقوله الآن فيه مبالغة أو تضارب.. ولكن، استمع لي، ثم احكم..

– كلي سمع يا مولاتي، وكلي نظر!

– أن زوجي يجعل حياتي جحيماً على الأرض. فيجب أن أتخلص منه!

– كيف؟

– يجب أن يقتل!

– ومن يقتله؟

– أنت، أو على الأصح الأشخاص الذين تضع أنت السلاح القاتل في أيديهم!

– هذه جريمة!

– ولكنها جريمة ستسفر عن خير عميم!... أن للكونت الآن ابناً وحيداً لم يبلغ بعد الثانية عشرة من عمره. فإذا مات أبوه، آلت وصاية الإمارة إلى أمه، أي إلى أنا، تحت إشراف الملك بودوان، بوصفه سيد الإمراء الصليبيين الذين بايعوه بالملك.. أفاهم أنت؟

– نعم يا مولاتي..

– إذن، فيموت الكونت ريمون تتحقق آمال كثيرة: إن موته يريحني من زوج

لا أحبه ولا أطيق العيش معه، ويخلي سدة الإمارة من صاحبها فيجلس عليها ابنه القاصر، وأتولى أنا الوصاية عليه، فاعقد صلحاً دائماً مع الأمراء والسلاطين المسلمين في هذا الشرق كله. فضلاً عن أن موت الكونت سيجعلني صاحبة ثروة عظيمة، سأعرف كيف أنفقها في سبيل هذا الشعب، الذي يتوق إلى الراحة والسلم، لا فرق بين مسيحي ومسلم من أبنائه.. وهذه الثروة، سأنفعك يا جندل بجزء منها.. بجزء يسير منها.. الآن.. وقبل أن تريحني من الكونت..

– يا مولاتي.. إنني مقتنع بكل ما أفضيت به إلي، ولكن..

– ولكن التنفيذ محفوف بالخطر؟ أهذا ما تعني؟

– نعم!..

– المال يذلل الصعاب يا جندل!.. وإنني في انتظارك غداً، هنا، في هذه الحجرة، ومعك الجواب الشافي.. إنني أتأهب للرحيل، وسيخرج الكونت معي بلا شك، ويرافقني إلى أبواب المدينة، أو إلى أبعد منها، ثم يعود إلى قصره.. وفي طريق عودته.. يضرب رجالك ضربتهم..

– إلى الغد يا مولاتي!

وفي الغد، تعهد جندل بن عون للكونتس هوديرن بأن ينفذ ما طلبته منه، فدفعت إليه بذلك الكيس الذي حمله إلى زوجته..

وأعد الرجل عدته لارتكاب الجريمة بحيث لا تقع عليه شبهة، ولا تمتد إليه يد بسوء فقد كان الكونت ريمون يخص بعنايته جواداً أصيلاً تلقاه هدية

من الملكة، وكان يصنع له بيده كل يوم قرصاً من الحلوى، يأكل نصفه، ويطعم الجواد النصف الآخر. فعول جندل بن عنون على أن يدس السم في ذلك القرص بحيث يقضي في آن واحد على الجواد وعلى صاحبه، بدون أن يدرك أحد سبب الوفاة..

وفي اليوم الذي رحلت فيه الكونتس هوديرن عن المدينة، أعد زوجها ريمون قرص الحلوى لجواده، وحفظه في المكان المعين له، وخرج في صحبة زوجته وأختها الملكة، متظاهراً أمام الناس بأن الفراق يدمي فؤاده، وهو في الواقع يتنفس الصعداء ويبارك ذلك اليوم الذي تبتعد فيه الزوجة المكروهة عن المدينة بل عن الإمارة بأسرها..

وبقي الملك بودوان في قصر الكونت ينتظر عودة مضيفه وعلى مسافة قصيرة من الأسوار، ودع الكونت زوجته وأختها، وقفل راجعاً من حيث أتى..

وراح جندل بن عون ويانسون العمارية يضربان أخماساً بأسداس أن الرجل قد مزج قرص الحلوى بسم لا يرحم.. فهل يأكل منه الكونت؟.. أم يلقيه بكامله إلى جواده، فيموت الجواد ويبقى صاحبه حياً يسعى.. ويضطر جندل بن عون إلى البحث عن وسيلة أخرى ينفذ بها وعده للكونتس، التي ترقب الأخبار وتمنى النفس بالخلاص؟

وفجأة، علا الصياح في المدينة، وسادها هرج ومرج، واندفع الناس في الطرقات والأزقة هائجين مائجين، يرددون كلمة واحدة:

"الإسماعيلية! الإسماعيلية!"

وخرج. جندل ويانسون من بيتهما، يسألان ويستفسران.. وكادا يصعقان من الدهشة!

فقد قتل الكونت ريمون الثاني وهو عائد إلى طرابلس، وقاتلوه جماعة من الفدائيين المنتمين إلى طائفة الإسماعيلية وهم أشد أعداء الصليبيين عناداً، وأبعدهم جرأة وأقواهم حيلة في التخلص من خصومهم، وكان ريمون الثاني واحداً من أولئك الخصوم.

هاجم الفدائيون موكب الكونت عند باب المدينة الجنوبي، ومزقوا جسمه طعناً بالخناجر والسيوف، وحاول رفاقه الدفاع عنه فقتل الجناة اثنين منهم، ولاذوا بالفرار متسللين في الممرات الضيقة الملاصقة للأسوار..

وكان الملك بودوان يلعب النرد مع رجال حاشيته في القصر، فهاله مصرع الكونت، وأمر قواد جيشه بأن يتأهبوا للطوارئ، خوفاً من أن تكون الجناية مقدمة لعمل أوسع نطاقاً منها.

واعتدى الشعب على جماعة من العرب في داخل المدينة، اعتقاداً منه أن لهم ضلعاً في الحادث، وأنهم يتآمرون على الأسرة الحاكمة..

وأسرع الرسل حاملين النبأ إلى الكونتس هوديرن والملكة ميليزاند، فعادتا إلى طرابلس..

وفي اليوم التالي، احتفل بجنازة الكونت ريمون الثاني، ودفن في سفح الجبل، عند باب القلعة التي شيدها منشئ الإمارة الصليبية في طرابلس، ريمون دي تولوز..

وحدث في أثناء الجنازة أن كان أحد رجال الحرس يقود جواد الفقيد خلف نعشه، وإذا بالجواد يسقط على الأرض ميتاً. فقد التهم قرص الحلوى بكامله ونظر المشيعون بعضهم إلى بعض مندهشين متأثرين، وقال أحدهم:

- لقد مات الجواد حزناً على صاحبه!

وبكت الزوجة هودين على ضريح زوجها بكاء مراً. وتهامس الناس قائلين:

- لم تكن على وفاق معه، ولكنها كانت تحبه!

وكان ذلك في سنة ١١٥٢ للميلاد، الموافقة لسنة ٥٤٧ للهجرة.

مرت أيام على الحادث، فأرسلت الكونتس في طلب جندل بن عون، وهنأته على مهارته في تدبير المؤامرة، ودفعت إليه بكيس آخر يحوي من المال بقدر ما كان يحوي الكيس الأول. فأخذ جندل الهبة، ولم يفه بكلمة.

وقالت هودين:

- كانت المؤامرة محبوكة ببراعة لا مثيل لها، يا جندل. فلك مني ما تريد لأنك أرحتني من زوجي، وحققت أمنيتي بأن أتولى الوصاية على هذه الإمارة، وأجعل السلام يرفرف عليها. فماذا تطلب. قل!..

فأطرق العربي لحظة ثم قال:

- أطلب منك الإذن يا مولاتي بالرحيل عن هذه المدينة، والعودة إلى أهلي وعشيرتي في بلاد الرها..

– اذهب بسلام يا جندل، وكن كتوماً في الغد، كما كنت كتوماً إلى الآن!

ورحل الرجل مع زوجته، ومعهما من المال ما يكفيهما ويكفي أبناءهما وأحفادهما من بعدهما.

وفي الطريق، قال جندل بن عون ليانسون العمارية:

– لست أدري يا حبيبتي العزيزة إذا كان هذا الذي حدث لنا من فعل الله أم من فعل إبليس. فقد عولنا على اقتراف جريمة لم نقترفها. ولكننا أنقذنا ثن الدم وغيرنا قتل. فليس في عنقنا إذن غير دم الحصان الذي أكل القرص المسموم. والكونتس تعتقد أنني أنقذتها من زوجها، ورفعتها إلى سدة الإمارة.. وقد أحسنا صنعًا بالابتعاد عن هذه المدينة، فلو بقينا لأصبحت حياتنا في خطر، ولحاولت الكونتس التخلص منا كما تخلصت من زوجها، لأننا نعرف سرها الرهيب!

فضحكن يانسون وقالت:

– أنت يا جندل القاتل الذي لم يقتل. والفائز بجائزة سباق لم يشترك فيه، وصاحب الفضل الذي لم يتفضل على أحد بشيء!

عقد الملكة



أتى الأمير الهمام أن ينزل جيشاً ليس له قائد، ويحارب ملكة مات زوجها!

في أواخر عام ١١٦١ للميلاد – الموافق لعام ٥٥٦ للهجرة، اشتدت وطأة المرض على بودوان الثالث ملك أورشليم، وهو يقوم برحلة في أطراف مملكته والإمارات الصليبية التابعة لها، فقرر العودة إلى عاصمته، وشد الرحال مع حاشيته وحرسه ولاسيما نحو الجنوب في الطريق المحاذية لساحل البحر، في سفوح لبنان. فلما وصل إلى طرابلس استراح أياماً، وهكذا فعل في بيروت حيث خارت قواه وأصبح عاجزاً عن متابعة السفر، ففاضت روحه في العاشر من شهر فبراير – شباط – عام ١١٦٢، ونقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث أودع مقره الأخير وهو في السابعة والعشرين من العمر.

وشاع في ذلك الوقت أن طبيباً عربياً دس له السم في دواء وصفه له. ولكن ثبت فيما بعد أن الشائعة كاذبة. وأن الطبيب العربي برئ من التهمة التي ألصقت به.

وقد حزن الشعب على مليكه وبكاه بدموع حارة، وقلقت الخواطر واضطربت النفوس بسبب ما كان يخشى أن يقع بين زعماء الصليبيين بعد

وفاته، على من يخلفه، وبسبب الغارات المتواصلة التي كان الملوك والأمراء المسلمون يشنونها على تخوم مملكة أورشليم وحصونها وملحقاتها، والتي كان ينظمها ويدير دفنها في ذلك الحين "نور الدين" صاحب حلب، وعم صلاح الدين الأيوبي، الذي أعدته الأقدار لإنشاء أعظم سلطنة عرفت في تاريخ الحروب الصليبية، ولإزالة مملكة أورشليم من الوجود.

بلغ خبر وفاة الملك بودوان مسامع الامراء المسلمين، وهم يعدون العدة لغارات جديدة، فعقدوا مجلساً للمداولة فيما بينهم، وقالوا لنور الدين: "إننا نستعد لمهاجمة ميناء عسقلان التي هي من المملكة الصليبية بمثابة الرئة من الجسد. فالفرصة سانحة الآن للقيام بهجوم خاطف عن المدينة، ثم لمواصلة الزحف نحو الموانئ الاخرى ونحو بيت المقدس والحصون الجبلية للاستيلاء عليها قبل أن تجف دموع الصليبين، وقبل أن يصحوا من ذهولهم، فلنضربهم ضربة قاضية وهم في هذه الحالة من التضعضع والضعف. أن حزنهم وحداداهم حليفان لنا في هذه الحرب!"

لكن نور الدين لم يشاطرهم الرأي، بل اطرق لحظة، رفع بعدها راسه وقال: "لن أهاجم الصليبين وهم على هذه الحالة المؤلمة، بل سأسلك معهم مسلكاً اسير بحديثه الركبان، ويتغنى به شعراؤهم في مختلف البلدان!"

وعادت الذاكرة بنور الدين إلى بضع سنوات خلت .. فتذكر أولاً عام ١١٤٤ للميلاد، الموافق لعام ٥٣٨ للهجرة حيث حمل إليه الرسل خبر اعتلاء بودوان الثالث عرش المملكة الصليبية وهو في الثالثة عشرة من العمر، فشعر صاحب حلب بشيء من الفضاضة والمرارة، لاضطراره إلى

منازلة خصم لم يبلغ بعد سن الرجولة، بل سن الفتوة، وهو الذي يتوق إلى مقارعة الأبطال الذين عركتهم الحروب وألفت زنودهم السيوف والرماح!

وتذكر عام ١١٥٣ للميلاد، الموافق لعام ٥٤٨ للهجرة حيث هاجم الملك الشاب بودوان الثالث مدينة عقلان وانتزعها من حاميتها المصرية، فلم يستطع نور الدين استرجاعها منه، فانقلب على دمشق وأخذها من صاحبها الذي خانه وحالف الصليبيين.

وتذكر عام ١١٥٨ للميلاد، الموافق لعام ٥٥٣ للهجرة حيث تزوج الملك بودوان الأميرة البيزنطية تيودورا، وهي في الثالثة عشرة من عمرها، واستعان بإمبراطور بيزنطة مانويل كومنين على محاربة المسلمين، فخدع نور الدين أعداءه وجعلهم يسحبون جيوشهم من أراضيه، مقابل اطلاق الأسرى المسيحيين من قلاعه وحصونه، فأمن شر تلك المحالفة الخطرة.

وتذكر عام ١١٦٠ للميلاد، الموافق لعام ٥٥٥ للهجرة حيث وقعت كتيبة من البيزنطيين في كمين أعده لها رجاله، فقتلوا من جنود الامبراطور ثلاثة عشر رجلاً، واستولوا على ما كانوا يحملونه من هدايا لبودوان وزوجته، وبينها عقد ثمين مؤلف من ثلاث عشرة حبة من اللؤلؤ، أعده الامبراطور لكي تزين به تيودورا عنقها في الحفلات الرسمية!

وتذكر أن العقد لا يزال في حوزته، وأن الملكة زوجة بودوان –وهو الذي تبكيه النصرانية في الشرق– قد حزنت على ضياع العقد، وانتحبت وأوفدت إلى نور الدين الرسل من أفرنج وعرب وبيزنطيين، تطلب إعادة العقد إليها مقابل ما يطلبه الأمير من مال، فرفض إجابة طلبها، وأعاد

إليها الرسل خائبين!

تذكر نور الدين ذلك كله، وعول على القيام بعمل يثير به دهشة الصليبيين واعجابهم، ويدخل إلى قلب الملكة الكسير بعض العزاء!

* * *

قال صاحب حلب لرفاقه من أمراء وقواد وفرسان: "إن مهاجمة الصليبيين وهم على هذه الحالة من الخور والقلق، عمل لا يليق بي وبكم، بل يلحق بنا جميعاً وصمة عار لن تمحوها الأيام المقبلة. فلو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصم سقط عن جواده مثخنا بالجراح! أن أعداءنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن أنفسهم، وقد أحاط قوادهم بجثة مليكهم يبكونه ويترحمون عليه، وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع سنهاجمهم ونخرجهم من أرض نعدها ملكاً لنا، وترفع عليها أعلامنا. أما اليوم، فإنني سأبعث إليهم بوفد من أبطالنا، لا للتحدي، ولكن للتعزية!"

وفي اليوم التالي لدفن الملك بودوان الثالث في أورشليم الحزينة الكئيبة، وصل أمام الأسوار ثلاثة عشر فارساً من رجال نور الدين، وطلبوا السماح لهم بالدخول إلى المدينة لمقابلة الملكة، ولا مثلوا بين يديها، أحنوا رءوسهم اجلالاً وتكلم كبيرهم فقال: "أيتها الملكة .. إن مولاي نور الدين صاحب حلب ودمشق، وقائد جيوش المسلمين في الصراع القائم الآن بيننا وبين قومك، يتقدم اليك وإلى أسرة الملك الراحل بأخلص شعور العزاء، ويحييك تحية الإكرام والإجلال، ويعيد إليك في هذه المناسبة، العقد الذي لم يحسن رجالك الاحتفاظ به وإيصاله إليك، فهو لك. خذيه هدية من نور

الدين، الذي يتعهد بألا يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً، ولا يهاجم لهم قلاعاً، ولا يعترض قوافلهم ورسلهم في السهول والجبال، ما دامت مملكة أورشليم بلا ملك، وما دامت جيوشها بلا قائد!"

فأخذت الملكة تيودورا –وكانت قد بلغت في ذلك اليوم السابعة عشرة من العمر– العقد من يد الرسول، وطبعت على حباته الثلاث عشرة، ثلاث عشرة قبلة، ثم وضعته في عنقها، وتناولت من كمها منديلاً من الحرير، مسحته به دمعتين نفرتا من عينيها، وقبلته مرة، فثانية، فثالثة، وقدمته لرسول نور الدين قائلة:

- هذا المنديل هدية مني، وتذكار شكر ووفاء للأمير السهم الكريم، والقائد المحنك الشجاع الذي أفرغ في صدره النبل، وتجسمت فيه المروءة .. حرسه الله من عاديات الزمان، ورد عنه غوائل الحدثان!

سر الأميرة المختفية



هل قتلت "ايدا" في المعركة؟ أم وقعت أسيرة فتزوجها آسرها وظل يجهل حقيقة أمرها؟

غليوم التاسع أمير أكيتانيا شاب قوي العضلات بهي الطلعة دفعه حبه للمخاطرات إلى اللحاق بالجيوش الصليبية الأولى، التي تدفقت من العرب لإنقاذ قبر المسيح من أيدي المسلمين.

وغليوم يبسط سلطانه على مقاطعات اكيتانيا وجسكونيا وتولوز.

وهو بعيد الشهرة في وطنه فرنسا، يخشاه الأمراء الآخرون ويحسب له الفرسان في الميادين على حساب، ولم يكن غليوم متديناً، بل كان يهزأ بتعاليم الدين، وإذا كان قد انضم إلى الجيوش الصليبية على راس كتائبه الكثيرة، فذلك لكي ينتقل من الغرب إلى الشرق، وينازل فرسان العرب في حومة الوغي، ويطلق لجواده العنان في جو لم يألفه من قبل، ولكي ينظم الشعر أيضًا، لأن غليوم التاسع كان شاعرا، وقد دون اسمه في تاريخ الأدب الفرنسي بين فحول الشعراء وأرقهم احساساً وأبعدهم خيالاً.

ذلك الأمير الشاب كان بين الأمراء والاقيال الغربيين أشدهم اندفاعاً في حمل النساء المسيحيات في أوروبا على الالتحاق بالكتائب الصليبية، وتجشم المخاطر والمصاعب لزيارة الأراضي المقدسة، اعتقاداً منه بأن وجود

الجنس اللطيف في صفوف الجنود لابد أن يبعث في صدورهم الشجاعة، ويضرم فيهم نيران الحماسة وحب التضحية.

وبين النساء اللواتي حملهن غليوم التاسع على اللحاق به إلى بلاد الشرق، أميرة نمسوية تدعى "ايدا" كان فرسان أسرتها جميعهم قد انضموا إلى الجيوش الصليبية، فلحقت بهم إجابة لإلحاح الأمير غليوم التاسع عليها، وشاءت الأقدار أن تنتهي حياة تلك الأميرة النصرانية في بلاد المسلمين بسر من الأسرار التي لا تزال إلى الآن غامضة، ولم يتمكن المؤرخون من تمزيق الحجاب عنها.

ففي سنة ١٠٩٩ للميلاد، الموافقة لسنة ٤٩٢ للهجرة بدأت المعارك في الشرق بين المسلمين والصليبيين، وكان غليوم التاسع يأخذ نصيبه من القتال في تلك الحملة الصليبية الأولى، على رأس الكتائب التي جندها بماله الخاص، وكان في الثامنة والعشرين من العمر.

شاء سوء حظه أن يشترك في معركة عرقلية، بأرض الأناضول، حيث التحم جيش الصليبيين في قتال مرير مع قوات مدربة حشدها الأمراء السلجوقيون لوقف الزمن الصليبي، وقد انهزم الإفرنج في تلك المعركة وتكبدوا خسائر فادحة.

تمكن غليوم من الإفلات وواصل السير مع البقية الباقية من كتائبه جنوباً، ودخل مدينة أنطاكية مع القوات الصليبية، وعبثا بحث عن الفتاة "ايدا" التي رافقته في مغامرته. فأنه لم يجدها، ولم يستطع أحد أن ينبئه بما حدث لها، فحزن الأمير الشاب عليها، واعتقد أن المسكينة قد قتلت في

معركة هرقلية، وتركت جثتها بين الجثث في العراء، فأمست طعاماً للنسور والغربان.

وعاد غليوم التاسع أمير اكيتانيا إلى بلاده بعد أن انتهت الحرب الصليبية الأولى، وواصل مغامراته في الغرب، وحارب ضد العرب الذين كانوا يغزون جنوب فرنسا من وقت إلى آخر، وتحالف عليهم مع الأمراء الإسبانيين الذين انتزع العرب منهم اماراتهم في الأندلس وقشطيلة وغيرهما.

ومات غليوم في سنة ١١٢٧، في السادسة والخمسين من العمر، وظل حتى آخر نسمة من حياته يذكر الأميرة النمساوية الشابة التي غرر بها وكان سبباً لهلاكها في سهول هرقلية.

***

مرت أعوام وتبعتها أعوام

وفي سنة ١١٤٧ للميلاد، الموافقة لسنة ٥٤١ للهجرة، وفدت على الشرق الحملة الصليبية الثانية بقيادة كونراد الثالث امبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فر نسا، وضرب الصليبيون الحصار على دمشق ثم رفعوه وعادوا من حبيت أتوا، وقد انتهت تلك الحملة بالفشل في سنة ١١٤٩م = ٥٤٣هـ.

وكان يرافق الإمبراطور كونراد الألماني ابن أخيه فردريك، أمير سواب، وهو الذي أصبح فيما بعد امبراطوراً لألمانيا، خلفاً لعمه، وعرف باسم "فردريك برباروس" أي صاحب اللحية الشقراء، وقد عاد إلى الشرق على رأس الحملة الصليبية الثالثة، مع ملك الإنجليز ريكاردوس قلب الأسد

وملك فرنسا فيليب أوغست، ومات غرقا في آسيا الصغرى، قبل أن يصل إلى الأرض المقدسة.

وفي خلال الحملة الصليبية الثانية، التي اشترك فيها فردريك مع عمه الأمير الامبراطور، وكان في منتصف العقد الثاني من العمر، جرى حديث بينه وبين أمير سلجوقي من أسرة أرسلان، أعاد إلى الأذهان ذكرى الأميرة النمساوية "ايدا" التي اختفت في سهول هرقلية قبل ذلك الوقت بحوالي نصف قرن.

فقد قال الأمير السلجوقي للأمير الألماني أنه حفيد امرأة نمساوية وقعت أسيرة في أيدى بني قومه، فتزوجها جده، ورزق منها ابناً هو والد الأمير الأرسلاني.

وعاد فردريك إلى الغرب حاملاً معه هذا الخبر، فراح الناس في النمسا يتحدثون مرة أخرى عن ايدا، باعتبار أنها قد تكون تلك الأسيرة التي تزوجت أميراً مسلماً في الشرق، وأنها لم تمت في معركة هرقلية كما أعتقد رفاقها بعد الحرب الصليبية الأولى.

***

ومرت أعوام أخرى..

وفي سنة ١١٨٩ للميلاد الموافقة لسنة ٥٨٥ للهجرة، التحق بالحملة الصليبية الثالثة أمير نمساوي من أسرة "ايدا" على أمل أن يكشف السر الذي أحاط باختفاء الفتاة في بلاد الأناضول، وكان الشباب في معية الامبراطور فردريك برباروس!

والتقى الشاب النمساوي بالأمير السلجوقى، وكان قد أحرز شهرة كبيرة وتولى الحكم خلفاً لأبيه، وعرف باسم فليج أرسلان الثاني، فأكد له الرجل مرة أخرى ما رواه لفردريك قبل ذلك الوقت، ودفع إليه قطعة من الحرير المزركش وخنجراً مرصعاً بالجواهر، وقال له:

– أن هذا الخنجر كانت تحمله الأميرة النمساوية التي وقعت في أسر المسلمين وتزوجها جدي، وهذه قطعة من ثوبها.

وأضاف فليج أرسلان قائلاً:

- لا يعرف أحد هنا اسمها. فقد كتمته، ورفضت أن تبوح به، حتى لزوجها، وكانت تكتفي بالقول بأنها نمساوية جاءت إلى الشرق مع أمير فرنسي، لتزور قبر المسيح في بيت المقدس، وقد زارته فيما بعد، يوم سمح لها جدي بأن تفعل.

وأخذ الشاب النمساوي معه الأثرين الباقيين من الفتاة المجهولة، وعاد بهما إلى بلاده، ولكن أفراد الأسرة لم يجدوا فيها ما يثبت أنها كانا للأميرة "ايدا" المختفية.

وظل مصير النمساوية الحسناء موضع شك وتخمين، وأمرهما معلقاً بين النفي والاثبات.

وكان الأمير غليوم التاسع، الذي تسبب في موت ايدا في معركة هرقلية –أو بوقوعها أسيرة كما اعتقد بعضهم– قد خلد اسمها في قصيدة رثى فيها الحسناء التي رافقته، والتي عاد إلى بلاده بدونها.

في حصن المرقب

أحسن إليها، فحفظت له الجميل، ولكن قومها أهانوه وعذبوه، فدفنته في الحصن التي تقيم فيه.

كانت تلك الليلة ليلة عيد في قلعة "المرقب" حيث اجتمع الأشراف والفرسان حول زعيمهم قائد ذلك الموقع الحربي المنيع. وتلألأت في القاعة الكبرى وجوه السيدات الضاحكة، وابتساماتهن الخلابة. وارتفعت في أرجاء المكان أنغام الموسيقي الوترية والأناشيد الدينية والقومية.

كان القوم يحتفلون بعيد الميلاد، وذلك في سنة ١١٧٢ مسيحية، الموافقة لسنة ٥٦٦ للهجرة، وقد عقدوا مع جيرانهم هدنة، تعهد الفريقان بالامتناع عن الحرب والغزوات في خلالها.

كان الصليبيون والمسلمون يلجؤون إلى مثل ذلك في المواسم والأعياد فلا تنطلق السيوف من أغمادها، إلا بعد انقضاء المدة المتفق عليها.

أما قلعة "المرقب" التي كان يقام فيها الاحتفال، فقد بناها العرب في سنة ٤٥٥ للهجرة الموافقة لسنة ١٠٦٣ للميلاد، في بلاد "الإسماعيلية" أو "الحشاشين" كما كانوا يسمونهم، على قمة جبل يشرف على البحر، وكان في استطاعة من يقيم في تلك القلعة أن "يراقب" الطريق المؤدية من

طرابلس إلى انطاكية، والطرق المتشعبة منها إلى المناطق الجبلية الداخلية، ويعرفها الإفرنج باسم قلعة "ماركا" أما العرب فقد اطلقوا على ذلك الحصن اسم "قلعة المرقب".

وانتزع عن ذلك الموقع المنيع من العرب، القائد الصليبي روجيه أمير أنطاكية, في سنة ١١١٧ للميلاد الموافقة لسنة ٥١٠ للهجرة، وانتقلت القلعة فيما بعد إلى "فرسان" الهيكل الذين تعهدوا بالاحتفاظ بها، والسهر فيها على سلامة المواصلات، بين حصون الإفرنج وقلاعهم على سواحل سورية ولبنان.

***

وفي تلك الليلة التي كان الفرح فيها شاملاً، وصل إلى أسوار الحصن الخارجية فارس عربي، طلب من الحراس أن ينزلوا المعبر على الخنادق المملوءة بالماء، لكي يدخل الحصن ويقابل قائده، مادامت الهدنة قد أعلنت، وما دامت الأيام أيام عيد، لا حرب فيها ولا قتال، ولا غدر ولا خيانة..

وترجل الفارس ودخل القلعة. وما وقع نظر الحراس عليه حتى عرفوه، لأنه كثيراً ما كان يتردد على قائد الموقع.

وعندما بلغ خبر وصوله مسامع المجتمعين في قاعة الحصن الكبرى لم يظهروا شيئاً من الامتعاض، بل وافقوا على أن يشاركهم الضيف الغريب في فرحهم ولهوهم وأوفدوا إليه رسولاً يدعوه للدخول.

لكن الفارس لم يدخل، بل أفضى إلى الرسول برغبته في أن يرى الفتاة

"بلانش" ربيبة سيد الحصن، لأنه سائر إلى ميادين القتال، ويود أن يودعها ويودع حماة الموقع في شخصها.

ولم يمانع أحد من الجالسين في قاعة الحصن في خروج الفتاة للقاء الفارس العربي، لأنهم كانوا جميعاً على بينة من أمرها، يعلمون أن الفارس أنقذ حياتها في إحدى الغزوات، وأنها تحمل له في صدرها عاطفة محبة قوية ممزوجة بالاحترام وعرفان الجميل.

***

هرولت بلانش إلى صحن القلعة، حيث كان الفارس العربي ينتظرها ملتحفاً بردائه الأبيض، تحت البرج الشاهق القائم في وسط المكان.

وألقت الفتاة بنفسها بين ذراعي ذلك الغريب، قائلة بصوت يبدو فيه القلق والاضطراب:

- علاء الدين! علاء الدين! ماذا أسمع؟ أعائد أنت إلى الميادين حقاً كما أنبئت منذ لحظة؟ ألا يعيد أذن سلطانكم الشجاع السيوف إلى الاغماد والراحة إلى النفوس؟ أكتب لكم أن تقضوا حياتكم كلها في كروفر وهجوم ودفاع، تتقاذفكم الأقدار من نصر إلى هزيمة ومن هزيمة إلى نصر؟ أما لهذه الحالة من آخر يا علاء الدين؟

فضم الشاب العربي الفتاة إلى صدره، وداعب جدائلها المسترسلة، وقال بصوت لا يقل اضطراباً عن صوتها:

- هكذا شاءت الأقدار يا بلانش، بل هكذا شاءت الأمم الإفرنجية التي

تنتمي إليها، والتي دفعت جحافل الصليبيين إلى هذا الشرق. إنني أقوم بواجبي كعربي ومسلم في صفوف العرب والمسلمين، كما يقوم أصدقاؤك وبنو قومك بواجبهم كإفرنج ونصارى، في صفوف الصليبيين. أتريدينني حانثاً بالعهود، جاحداً لسادتي، محجماً عن تلبية نداء الدين – ديني أنا يا بلانش؟

– كلا يا صديقي: لا أريدك هكذا، بل أريدك دائماً أبداً حافظاً للعهود، طائعاً لسيادتك, أول الملبين للنداء. لقد أنقذت حياتي يا علاء الدين من موت محقق. وكنت في ذلك اليوم العصيب مثال النبل والشرف والمروة وأنني أحفظ لك الجميل على حسن صنيعك, كما أن قومي يقرون لك بذلك الصنيع الحسن. فأنت هنا دائماً بين أصدقاء أوفياء، سواء أكنا في أيام حرب أم في أيام سلم، ولكنني أرغب إليك في شيء واحد وهو ألا تطيل غيبتك عني، وأن تزور هذا الحصن مرة أو مرتين في السنة! هذا كل ما أطلبه منك. وأعدك بأنني سأفكر فيك ليلاً ونهاراً، وأرفع صلواتي إلى الله عز وجل –إلى الله الذي يعبده قومي كما يعبده قومك يا علاء الدين– بأن يدفع عنك الأذى، ويحفظ حياتك، ويجعلك سعيداً .. سعيداً كما أريد أنتا أن تكون.. سعيداً على الخصوص في الحب يا علاء الدين.

- وهذا ما أرجوه لك يا صديقتي.

– حقق الله رجاءنا؟ وسأطلب من أنه أيضاً في هذه الليلة التي تحتفل فيها بميلاد السيد المسيح ألا يسمح بموت أحدنا بعيداً عن الآخر.

– وسأطلب منه أيضاً أن يغمض عيني للمرة الأخيرة إلا بالقرب منك يا بلانشي. الوداع.

- بل إلى اللقاء يا منقذي من الموت. إلى اللقاء القريب! كن شجاعاً، ولكن لا تجازف بنفسك ولا تقتحم المخاطر طائشاً.

- إلى اللقاء:

***

رحل علاء الدين السنجاري عن حصن المرقب في ذلك الليل الذي أراد الله أن تكون السماء فيه صافية الأديم مرصعة بالنجوم، وغاب الفارس العربي الكريم عن الأنظار متغلغلاً في الظلام، والفتاة مطلة من أعلى البرج الشاهق، ناشرة خمارها الأبيض، مشيرة به لتحية الصديق المسافر، على حين كانت الرياح تداعبها بنفحاتها الباردة.

واجهشت الفتاة فجأة بالبكاء، فأفلت الخمار الأبيض من يدها، وحملته الرياح على أجنحتها، ودفعت به إلى حيث تمتد الطريق الوعرة، من أسوار الحصن إلى أسفل الجبل.

ونظرت بلانش إلى الخمار في طيرانه، وما هي إلا دقيقة واحدة، حتى سمعت الفتاة صوتاً بعيداً عرفته من نبراته، يصيح فرحاً:

– سأحمله في صدري، وسيكون لي درعاً يرد عني الأذى! إلى اللقاء!.

* * *

في يوم من أيام الشتاء سنة ١١٩٢ للميلاد، الموافقة لسنة ٥٨٨

هجرية، وصل مدينة طرطوس، في رابعة النهار، شيخ هرم، يجر نفسه جراً وعلى ظهره كيس مهلهل يحمل فيه قوته، وفي وجهه أثر جرح بليغ وشعوره البيضاء تجلل رأسه وتتساقط على كتفيه.

كانت المدينة في ذلك اليوم في فرح، لأن الكنيسة التي شيدها الصليبيون، وهدمها السلطان صلاح الدين يوسف في غزوة سنة ١١٨٨ ميلادية، الموافقة لسنة ٥٨٤ للهجرة، قد أعيد ترميمها واصلاحها بعد أن عقد الصلح بين السلطان وريكاردوس قلب الأسد ملك الانجليز وكان الناس في ذلك اليوم يقيمون الزينات استعداداً للاحتفال بعيد الميلاد.

مر الشيخ الغريب في المدينة قاصداً إلى الكنيسة الكبيرة، فالتقى في ساحتها بكاهن جليل من كهنة الصليبيين فسأله قائلاً:

– أفي استطاعتك أن تعطيني أخباراً عن حصن المرقب ومن يقيم فيه الآن؟..

- نعم يا أخي .. في استطاعتي أن أفعل ذلك إذا كان الأمر يهمك.. أقاصد أنت إلى ذلك الموقع المنيع؟

- نعم .. أنني أسير إليه على قدمي، منذ أسابيع.

- أن الحصن لا يزال كما كان منذ عشرات السنين، في حوزة فرسان الهيكل.

- الفتاة بلانش؟ أتعرف عنها شيئاً.

- الفتاة بلانش؟ لقد زرت القلعة في العام الماضي، ولكنني ما عرفت فيها

فتاة بهذا الاسم، غير أن في الحصن اليوم سيدة تدعى "بلانش هي زوجة الكونت هكتور، الذي بلغت مسامعك بلا شك أنباء انتصاراته الباهرة ووقائعه الرائعة عن زوجته تدعى بلانش، نعم وابنته الصبية تدعى كلوتيلدة.

- آه .. شكراً لله .. أستودعك الله.

– بسلامة الله يا أخي.

***

وكانت تلك الليلة أيضاً ليلة عيد في قلعة المرقب، حيث اجتمع الاشراف والفرسان في سنة ١١٩٢ كما كانوا مجتمعين في سنة ١١٧٢ فتلألأت في القاعة الكبرى وجوه السيدات الضاحكة، وابتسامتهن من الخلابة وارتفعت في أرجاء المكان أنغام الموسيقى الوترية والأناشيد الدينية والقومية.

وكان القوم يحتفلون –في تلك الليلة أيضاً– بعيد الميلاد المجيد. وفي سكون الليل، ارتفع وراء الأسوار صوت يطلب من الحراس الإذن بالدخول.

من يكون ذلك الشيخ المتهدم؟ أنه بلا شك درويش حط عليه الزمر أو متسول متشرد، أو حاج نذر الله السير على قدميه إلى بيت المقدس.

أنزل الحراس المعبر فدخل، وجلس في ناحية من السلك قائلاً للجند أنه يرغب في رؤية السيدة زوجة الكونت هكتور، فامتعض ، ولكنهم حملوا

الخبر إلى السيدة، لأن التقاليد تقضي بألا يرفض لأحد طلب في أيام الأعياد.

حرجت بلانش إلى سعادة الحصين، واتجهت إلى الركن الذي جلس فيه الغريب ينتظر. فإذا بها أمام رجل لا تعرفه.

– بلانش!

انبعثت هذه الكلمة من فم الغريب الشيخ، فانتفضت المرأة لسماعها هذا الاسم ينطلق فجأة من بين شفتين مرتجفتين، وقالت بدهشة ممزوجة بشيء من الغضب:

- من أنت؟

– أنا ...

سكت الرجل وعض على شفتيه. ثم وضع يده في صدره، وتناول منه شيئاً نشره أمامه. فإذا بالمرأة تري خماراً أبيض ناصع البياض.. يخفق مضطرباً وقد لعبت به خطرات النسيم.

- علاء الدين.

– نعم علاء الدين يا بلانش!

- أنت؟ على هذه الحالة هنا؟ .. انهض انهض من مكانك وقص علي قصتك..

- لا .. لا أستطيع النهوض، فقد خارت قواي. وما جئت إلى هنا إلا لكي أقضي نحبي في هذا الركن المنعزل من أركان حصنك يا بلانش.

- هكتور .. هكتور ..

دوى صوت السيدة في أرجاء القلعة، فأسرع الكونت هكتور، زوجها، تصحبه ابنته، وهي في الخامسة عشرة من العمر.

- هكتور. لقد أفضيت إليك غير مرة يا حبيبي العزيز بما حدث لي من زمن بعيد، يوم أحدق بي الخطر من كل صوب، فأنقذني فارس عربي شهم نبيل.

– علاء الدين؟

– أنظر: إنك ترى منقذي أمامك.

– هذا الشيخ الهرم؟

فرفع علاء الدين رأسه، وقال بصوت عادت إليه نبرات الشباب:

- أن هذا الشيخ اليوم أيها المولى، لم يبلغ بعد الخمسين من العمر لكن الويلات والمصائب التي حلت به، والعذاب الذي قاسياه، والضرب المبرح الذي تحمله بصبر وأناة, كل ذلك جعله يشيخ قبل الأوان.

كانت بلانش قد جلست على الأرض بجانب منقذها، وأرهفت أذنيها تستمع إليه، فقال:

- وقعت أسيراً في حروب عسقلان منذ عشرين سنة، فقادني الصليبيون إلى قلاعهم وحصونهم، ثم أرسلوني مع من أرسل من بني قومي إلى بلادهم.. نعم إلى بلادكم أيها المولى، حيث طافوا بنا كما يطوف المروضون بوحوشهم، لكي يتفرج علينا الناس في المدن والقرى

والحقول.

- ماذا تقول يا علاء الدين؟

- الحقيقة. وقد فررت من الأسر، وهمت على وجهي في بلاد لا أعرف لغة أهلها. فسرت من قطر إلى قطر، متنكراً، باسطاً يدي للتسول. أتحمل العذاب وشظف العيش، وليس لي غير واحدة، وهي أن أرى بلادي قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة، وأن أموت في هذا الحصن يا بلانش!

وها قد رأيت بلادي، ورأيت قومي فرحين مهللين، بعد أن استرجع السلطان صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس وهدم العرش الذي أقامه فيه الافرنج الذين تنتمي إليهم يا بلانش فلا تحملي موجدة على إذا ما شاركتهم الفرح والتهليل.

- لا أحمل موجدة عليك يا علاء الدين، لأنني أفهم معنى المشاعر التي تختلج في صدرك أيها البطل الشجاع.

- البطل الشجاع الآن تحول إلى شيخ متهدم جاء ليموت هنا .. في هذا المكان .. بالقرب من الصديقة الوفية.

- ستعيش يا علاء الدين، ستعيش وسننسيك نحن هنا ما ألحقه بك بنو قومنا هناك من ضرر.

- ما جئت لكي أعيش بل لكي أموت. وقد حقق الله رجاءنا يا بلانش أما طلبنا منه هنا، منذ عشرين سنة، ألا يسمح بموت أحدنا بعيداً عن الآخر؛ وقد أراد الله أن تغمضي عيني بيديك. انني أشعر بالحياة تنسل

من جسمي انسلالاً، فأقول لك اليوم يا بلانش: الوداع! الوداع الأخير! إن هذه الليلة ليلة عيد عندكم يا كونت. فأرجو ألا تعكروا على أنفسكم صفو هذه الأفراح. إنكم تحترمون إرادة الميت الأخيرة، وإرادتي الأخيرة هي أن تدفنوني في سفح هذا الجبل، بين تلك الصخور الشاهقة، ويكون ذلك على أنغام الموسيقى، وعلى لحن أنشودة العيد، التي كانت بلانش الفتاة تغنيها منذ عشرين سنة، والتي أرغب إلى بلانش الزوجة والأم أن تغنيها الليلة أيضاً.

وفي ليلة عيد الميلاد سنة ١١٩٢، دفن علاء الدين السنجاري في صفح الجبل، على طريق قلعة المرقب، على أنغام أنشودة العيد، وأبت صديقته بلانش، التي أنقذها من الموت فكان نصيبه الأسر والتعذيب والتشريد، الا أن تقيم على قبره شاهدا حضرت عليه هذه الكلمات باللغة العربية: "في ذمة الله. إنا لله وإنا إليه راجعون!".

حب بلا أمل



مات حبيبها الغربي، ومات حبيبها العربي، فلم يبق لها إلا أن تدفن نفسها حية وتبكى الحبيبين

في القرن الثالث عشر الميلاد والسابع الهجرة – اتخذ الصراع الصليبي الإسلامي في الشرق شكلاً منتظر. وعمد كل من الفريقين المتصارعين إلى أسباب لم تكن مألوفة بينهما من قبل. وبدت رغبة كل منهما في احلال الفوضى والتفاهم محل التنافر والاقتتال. أو بعبارة أخرى، إحلال "الدبلوماسية" قبل أن توجد هذ الكلمة، محل "الحرب" بحيث يوضع حد لإراقة الدماء، في سبيل امتلاك الأراضي المقدسة في سورية الجنوبية، وهي المعروفة باسم "فلسطين" بعد أن كانت قد تحولت، منذ قدوم الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الحادي عشر الميلاد، والخامس للهجرة إلى مسرح لمجازر رهيبة.

في سنة ١٢٢٨ للميلاد الموافقة لسنة ٦٢٥ للهجرة، وفدت على الشرق الأدنى الحملة الصليبية السادسة، بقيادة امبراطور المانيا، الملقب بامبراطور الغرب، فردريك الثاني. وكان ذلك العاهل الجريء صاحب الدعوة إلى مفاوضة الملوك والأمراء المسلمين في الشرق، وعقد معاهدات

صلح معهم، تنهي الحروب الصليبية وتقرر مصير الأراضي المقدسة، بإعادتها جميعاً الى أولئك الملوك والأمراء، على أن تترك النصارى في الشرق والغرب على السواء، حرية زيارتها للحج والتبرك، أو الاقامة فيها آمنين مطمئنين.

ولم تكن السلطات الدينية المسيحية في الغرب تقر الامبراطور الألماني على رأيه ذلك، بل تلح عليه، وهو أقوى الملوك الغربيين وأوسعهم سلطاناً، بأن يعمد إلى الحرب كما فعل غيره من قبل في الحملات الصليبية الخمس السابقة، لانتزاع الأراضي المقدسة بالقوة، وإعادة مملكة أورشليم إلى سابق عهدها، بعد أن دمرها صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، الموافق للقرن السادس للهجرة.

نزل الامبراطور على رغبة البابا غريغوريوس التاسع، الجالس على عرش القديس بطرس بمدينة روما في ذلك الوقت، وأعد الحملة الصليبية التي عرفت بالسادسة، ومشى هو على رأسها، ولكنه ظل على رأيه، وتعمد أن تكون الحملة في هذه المرة للمصالحة لا للقتال.

وما كاد فردريك الثاني يصل إلى الشرق، حتى أوفد رسله إلى الملك الكامل نصر الدين الأيوبي، سلطان الديار المصرية والشامية. لمفاوضته في الصلح

وعقدت بين العاهلين معاهدة وجد الطرفان فيها ما يرضيهما ويحقق أهدافها. فقد تنازل السلطان للإمبراطور، بموجب تلك المعاهدة، ولمدة عشرة أعوام، عن المدن الثلاث التي لها في نفوس المسيحيين مكانة خاصة، وهي بيت لحم حيث ولد المسيح بن مريم، والناصرة حيث نشأ، وأورشليم أو بيت المقدس، حيث بشر وتعذب ودفن وبعث حياً..!

ونصت المعاهدة على أن يتخلى ملوك النصارى وأمراؤهم عن هذه المدن للمسلمين، بعد انقضاء الأعوام العشرة، على أن يعودوا للمطالبة بها مرة أخرى، وألا يحاولوا الاستيلاء عليها سلماً أو حرباً.

وثارت ثائرة العالم المسيحي في الغرب على الإمبراطور الألماني، وحامت حوله الشكوك، واتهمه البابا غريغوريوس التاسع بأنه تواطأ مع السلطان لأنه اعتنق الإسلام خفية! وظل بعض المؤرخين يعتقدون، منذ ذلك الوقت، أن فردريك الثاني لم يمت مسيحياً، بل مسلماً !

***

ولا انقضت الأعوام العشرة التي حددتها المعاهدة بين فردريك والملك الكامل، عاد المسلمون فبسطوا سلطانهم على مملكة أورشليم بكاملها، بما فيها المدن الثلاث، بيت المقدس، والناصرة، وبيت لحم..

وكان غريغوريوس التاسع لا يزال على رأس الكنيسة المسيحية في روما. أما في مصر وسورية، فكان الملك العادل سيف الدين أبوبكر قد تولى الحكم، ثم خلفه في سنة ١٢٤٠ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٣٧ للهجرة، أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وكتب البابا إلى نجم الدين يطلب منه تأمين النصارى على أملاكهم وأرواحهم، فرد عليه السلطان بكتاب حمله رسول خاص، وجاء فيه ما يلي:

"إلى رأس الملة العيساوية، وقاضيها الحبر الأعظم: أنه قد وصلني كتابك. وبه تروم الصلح والسلامة والأمان على أبناء ملتك. نقبلنا سؤالك وصفحنا عنهم الصفح التام. فليكن هذا معلوماً والسلام".

***

وانقضت عشر سنوات أخرى، وتولى عرش الكنيسة في روما البابا "اينوشنتو الرابع" فارتفع صوته بوجوب نقض الهدنة، وإعداد حملة صليبية سابعة تزحف على الشرق للاستيلاء مرة أخرى على بيت القدس وقبر المسيح!

وتقدم ملك فرنسا لويس التاسع لقيادة تلك الحملة، وأعد لها قوة من خيرة الأشراف والفرسان، جميعهم من الفرنسيين المدربين على القتال.

***

خمسون ألفا من رجال الحرب حشدهم لويس التاسع في ميناء "ايجمورت" بفرنسا، تم نقلتهم ألف وستمائه سفينة إلى جزيرة قبرص. وفي سنة ١٢٤٩ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٤٧ للهجرة، أقلعت الحملة إلى مصر، ووجهتها ميناء دمياط.

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب مشغولاً بمحاصرة مدينة حمص بسورية، فعهدت زوجته شجرة الدر إلى القائد فخر الدين بالدفاع من دمياط. ولكن الصليبيين تمكنوا من الاستيلاء عليها، فسقطت في أيديهم قبل أن يصل السلطان عائداً من سورية على جناح السرعة.

واستأنف الافرنج زحفهم جنوباً. فقاتلهم المصريون وهم يرتدون في اتجاه مدينة "المنصورة" وسقط الأمير فخر الدين صريعاً في الميدان.

في الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٦٤٧ هجرية ١٢٤٩ للميلاد مات الملك الصالح نجم الدين أيوب في مدينة المنصورة، وكان ابنه توران

شاه غائباً في سورية، فأرسلت أمه شجرة الدر تلح عليه بالعودة، وكتمت خبر وفاة زوجها عن الناس، وواصلت الإشراف على أعمال الدفاع.

وكان الافرنج قد وقعوا في أكثر من خطأ واحد في زحفهم. ولما دخلوا المنصورة في شهر فبراير من سنة ١٢٥٠ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٤٨ للهجرة، حلت بهم الهزيمة المنكرة التي غيرت مجرى الحرب..

هلك فريق منهم في داخل المدينة، و قرر الملك لويس التاسع أن يتراجع بجيشه عائداً إلى دمياط، تجنباً لكارثة ساحقة، ولكن المصريين طاردوا الجيش المتقهقر، وداهموه من جميع الجهات، بقيادة السلطان الشاب نفسه. وفي معركة "فارسكور" أدرك لويس التاسع أن لا فائدة من مواصلة القتال، فسلم نفسه، ووقيع أسيراً مع جيشه كله. واقتاده المصريون إلى المنصورة حيث سجنوه في الدار المعروفة ببيت ابن لقمان.

حدث ذلك في شهر محرم من سنة ٦٤٨ هجرية. وكان الملك لويس التاسع في الرابعة والثلاثين من العمر.

وقد افتدى الفرنسيون ملكهم بالمال، فدفعوا ثمناً لحريته ثمانمائة ألف قطعة من الذهب، وتعهدوا بالجلاء عن دمياط، والرحيل عن أرض مصر. وكان الملك المعظم توران شاه قد قتل بأيدي خصومه، فتولت الملك بعده أمه شجرة الدر.

***

ألقى الإفرنج نظرة وداع أخيرة على الأرض التي كانوا يطمعون في الاستيلاء عليها، والتي ذاقوا فيها مرارة الهزيمة وعذاب الأسر. وأبحرت

مراكبهم نحو الشرق ناشرة أجنحتها البيضاء على صفحة المياه الزرقاء.

قصد الملك لويس التاسع، إلى أرض فلسطين وسواحل لبنان على أمل أن يجمع هناك شمل رجاله، وبعد عودته عدته لهجوم جديد يقوم به على مواقع المسلمين...

وكانت الحصون والقلاع الصليبية منتشرة في تلك الأقطار، تشرف من أعالي القمم الشاهقة على السهول المنخفضة وعلى شواطئ البحر. كأنها وكور معلقة في الفضاء، تتحفز فيها العقبان للانقضاض.

طاف الملك الفرنسي في البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وأقام في حصونه وقلعه حاميات تقوى على مواجهة الغزوات وصدها، وقرر أن يتخذ "قلعة البحر" في "صيدا" مقراً له ولأسرته وحاشيته.

وقلعة البحر بناها الصليبيون في سنتي ١٢٢٧ و١٢٢٨ للميلاد، الموافقين لسنتي ٦٢٤ و٦٢٥ للهجرة، في جزيرة صغيرة بميناء صيدا اللبناني – أو "ساجيت" كما كان الإفرنج يسمونها، للدفاع عن تلك المدينة. وكانت الجزيرة المحصنة تنصل بالبر بجسر من الحجر طوله نحو سبعين متراً، ولا تزال خرائبه قائمة حتى أيامنا هذه.

وشيدوا على اليابسة قلعة ثانية، أطلقوا عليها اسم "قلعة البر"، وكان جيشهم يتفرق بين القلعتين في أيام الحصار والهجوم والدفاع.

أقام الملك لويس التاسع في "قلعة البحر" ومعه زوجته "مرغريت دي بروفانس" والكونتس "دارتوا" زوجة أخيه الذي قتل في معركة "المنصورة". ونزل معه في القلعة أيضاً أخواه الفونس وشارل وزوجتاهما.

فالأسرة الملكية كانت كلها مجتمعة إذن في "قلعة البحر" عندما عزم الملك الفرنسي على اتخاذها مقراً له، في أثناء إقامته في الأرض المقدسة.

وكان الملك يشرف بنفسه على تحصين المدينة وتقوية أسوارها، فجعلها في مدة قصيرة منيعة الجانب صعبة المنال، ولبث ينتظر الفرص السانحة لإعادة الكرة على معاقل المسلمين وعواصم ممالكهم.

لكنه لم يقدم على حرب جديدة واسعة النطاق، فانقضت أربع سنوات لم تقع فيها بين المسلمين والصليبيين غير مناوشات محدودة، وفي ٢٥ من شهر أبريل سنة ١٢٥٤ للميلاد - الموافقة لسنة ٦٥٢ للهجرة، أبحر الملك لويس عائداً إلى بلاده، مع زوجته وبقية أسرته.

***

كان بين وصيفات الملكة مرغريت فتاة فرنسية تخصها بعطفها تدعى "سلفي دي بوفال" جات مع الحملة الصليبية وظلت ملازمة لمولاتها في مصر ولبنان، تخدمها بإخلاص، وتسهر على راحتها، وتتفانى في محبتها، عرفاناً منها بالجميل..

فإن القناة لم تجيء إلى الشرق وحدها، بل كانت في صحبة أخيها وابن عمها.. سقط الأخ شارل دي بوفال قتيلاً في يوم المنصورة. وضاعت .. جثته بين الجثث.

أما ابن العم، واسمه أيضاً مثل الأخ "شارل دي بوفال" فقد جرح في معركة فارسكور، وكان بين الأسرى الذين افتداهم الإفرنج مع الملك الأسير. فعاد إلى دمياط. ولكن جرحه انتقض عليه. وعجزت عناية سيلفي

به عن شفائه منه –فلحق بابن عمه، ودفن في دمياط قبيل رحيل الإفرنج عنها–

ولما صعدت الفتاة إلى السفينة التي أقلعت بأفراد الأسرة المالكة، ألقت نظرة أخيرة على المدينة والأرض الممتدة خلفها، حيث ودعت سيلفي دي بوفال آمالها، وحبها!

فإن الفتاة الفرنسية الجميلة كانت مرتبطة بابن عمها برابطة أخرى غير رابطة الدم والقربى: كانت تحبه، وكان شارل دي بوفال يبادلها عاطفة بعاطفة، وقد تعاهدت معه على الزواج بعد أن تضع الحرب أوزارها، ويعود الاثنان من زيارة قبر المسيح، لأنهما كانا على ثقة، مثل رفاقهم جميعاً، من أن الحملة الصليبية السابعة! سوف تسفر عن انتصار الملك لويس. واسترجاع بيت المقدس عنوة من المسلمين.

وخاب ظن الفتاة و تبادلات آمالها: فقد قتل أخوها، ولحق به ابن عمها وحبيبها، وأصبحت يتيمة وحيدة في هذا العالم. ولكن الملكة مرغريت شملتها بعطفها، واحتضنتها في وحدتها، وحاولت جاهدة أن تنسيها ما هي فيه من حزن وأسى.

وأمضت سيلفي دي بوفان في الشرق أربعة أعوام أخرى، في كنف الملك والملكة، في قلعة البحر بصيدا.

وكانت تخرج من القلعة. من وقت إلى آخر، مع القوافل المتنقلة بين مواقع الصليبين. ثم تعود الى اتخاذ مكانها، بالقرب من مرغريت دي بروفانس.

ومنذ العام الثاني من إقامتها في صيدا، أدركت الملكة أن شيئاً ما قد تغير في حياة وصيفتها العزيزة، وشكت في أن هناك سراً تخفيه الفتاة عنها، وتساءلت مرغريت: ماذا عساه أن يكون، ذلك السر؟

وأخيراً، تمزق عن السر المجهول؛ القناع الذي كان يحجبه!

***

قضت الملكية الى الوصيفة برغبة الملك في الرحيل عن صيدا والعودة إلى فرنسا، ظناً أن الفتاة ستقابله هذه البشرى بالاغتباط، وتفرح لقرب العودة إلى الوطن والأهل والخلان.

لكن سيلفي لم تبتسم، بل قابلت الخبر بوجه عبوس، وجدوا أثار دهشة الملكة, ودموع انحدرت من مآقيها على الرغم منها. وخيل إلى الملكة أنها دموع حزن وانقباض، لا دموع فرح وانشراح!.

فأخذت مرغريت رأس وصيفتها المحبوبة بين يديها، وقالت لها بلهجة ملؤها العطف والحنان:

- سيلفي .. يخيل الي أن خبر رحيلنا عن هذه الديار يؤلمك.

قولي لي: ما الداعي إلى هذه الدموع التي لا تنم عن ارتياح وسرور؟

فألقت سيلفي نفسها على قدمي مولاتها، وانهمرت الدموع من عينيها ثم رفعت رأسها ونظرت إلى مرغريت نظرة أفرغت فيها كل ما في صدرها من أمل ورجاء واحترام، وقالت بصوت تقطعه الزفرات:

– مولاتي! أريد البقاء هنا .. لا أرغب في العودة إلى فرنسا .. لم يبق لي

هناك أحد من الأهل والأصدقاء .. أنا يتيمة الأبوين، لا أسرة لي انتمي إليها ولا بيت لي ألجأ اليه .. ولو لم يغمرني عطف مولاتي الملكة ومولاي الملك، لكنت الآن في حالة بؤس وشقاء، بل لكنت الآن في عداد الأموات، بعد مصرع أخي، ووفاة خطيبي!

- وماذا تخشين يا ابنتي، ما دمت مقيمة في كتفي، وما دام الملك يشملك برضاه، على حين أرعاك أنا بعنايتي؟

- مولاتي .. إنني ..

- سيلفي أخشى أن أكون قد أدركت الحقيقة. أنك تحبين.

لا أعتقد أن عاطفة غير عاطفة الحب تحملك على التخلي عني في الساعة التي يبلغ فيها فرحي أقصاه والتي أستعد فيها للعودة إلى بلادنا المحبوبة. قولي لي الحقيقة يا ابنتي .. يا أختي .. ولا تخفي عني شيئاً. لقد عرف قلبي الحب، وأنا امرأة مثلك يا سيلفي، أفقه ما تنطوي عليه قلوب النساء، وما ينتابها من عذاب أليم إذا ما داعب الحب أوتارها بأنامله!

تشجعت الفتاة وأدركت أن لابد لها من الإفضاء إلى مولاتها بالسر الذي تكتمه في صدرها وأن يوم الرحيل قريب، وأن الملكة مرغريت أولى الناس بالاطلاع على ذلك السر، وأكثرهم تسامحاً في الموافقة على رغبة الفتاة في البقاء.

فجلست الملكة على مقعد وثير، أمام نافذة غرفتها المشرفة على البحر، وجلست سيلفي على الأرض عند قدميها. وهناك، على هدير الأمواج المتكسرة على أسوار القلعة وصخور الشاطئ، أفضت إلى مولاتها

بما يتأجج في صدرها من غرام جديد!

قالت سيلفي دي بوفال لمرغريت دي بروفانس:

- تذكرين يا مولاتي أنني خرجت منذ سنتين مع قافلة فرنسية تحرسها كوكبة من فرساننا، وقد هوجمت القافلة في الطريق، وقتل فريق من الفرسان، وتشتت الرجال والنساء في البراري والقفار، ووصل منهم من ساعدهم الحظ وأخذ الله بأيديهم إلى بعض معاقل الصليبيين ففازوا بحياتهم، أما أنا فقد أغمي علي في أثناء المعمعة.

وعندما أفقت وجدت نفسي كما تعلمين في مضرب وسط الجبال، وحولي جماعة من النساء العربيات.

- أعلم ذاك كله يا ابنتي. فقد أنقذ حياتك شاب من أبناء هذه البلاد أشفق عليك واحتملك على صهوة جواده إلى مضارب عشيرته، ثم أعادك إلى صيدا، وصل بك إلى الأسوار، ولم يغادرك إلا بعد أن دخلت المدينة آمنة.

- أن ذلك الشاب يا مولاتي في صيدا الآن..

- كيف ذلك؟

- نعم. فقد اشترك مع المسلمين في هجومهم على المدينة في العام الماضي، عندما هاجموها في غيبة الملك، واقتحموا أسوارها، وأهلكوا حاميتها، وقتلوا من قومنا ألفي شخص لا نزال نبكيهم إلى الآن..

- رحمة الله عليهم!

- كان ذلك الشاب الذي أنقذ حياتي منذ سنتين بين المهاجمين المغيرين، وقد شاءت الأقدار أن أعثر عليه جريحاً في زقاق مظلم، وما وقع نظري عليه حتى سمعت صوتاً هو صوت الضمير يهيب بي أن أنقذ حياة هذا الرجل كما أنقذ حياتي من قبل، وقد أنقذت حياة الشاب ونقلته إلى منزل جندي من بلدتي، وهو لا يزال مقيماً فيه إلى الآن!

- وهل شفي من جراحه؟

- نعم: ولكن حياته لا تزال في خطر. فهو مهدد بالموت على الدوام، لأنه يشكو ضعفاً في قلبه .. وقد زاد ذلك القلب ضعفاً بعد أن برح به الحب!

- هل يحبك؟

- وأحبه!

- ما اسمه؟

- رامح

- ابن من هو؟

- ابن الشيخ طالب من عرب البلقاء، وأبوه من أسياد قومه..

- إذن، فأنت ترغبين في البقاء هنا للسهر على حياة هذا الشاب، وهو يرغب في اتخاذك زوجة له؟

- لن يتم هذا الزواج يا مولاتي، فرامح مشرف على الموت، ولن يعيش طويلاً، وإذا كنت أرغب الآن في البقاء بجانبه، فلكي أخفف عنه أهوال

المرحلة الأخيرة من مراحل هذه الحياة. وهذا نذر تعهدت بوفائه أمام العذراء مريم، عندما أنقذ هذا الشاب العربي المسلم حياتي. فقد نذرت لها أن أنقذ حياة شاب من الأعداء. وأبت الأقدار إلا أن يكون ذلك الشاب هو منقذي بعينه، وأن تحل عاطفة الحب في قلبي محل عاطفة العرفان بالجميل والوفاء بالنذر!

- لك ما تريدين يا ابنتي؟

أقلعت المراكب من صيدا حاملة الملك لويس التاسع وأهله وذويه وحاشيته، قاصدة إلى فرنسا، كما أقلعت قبل ذلك اليوم بأربعة أعوام من دمياط قاصدة إلى لبنان، وبقيت سيلفي دي بوال، الفتاة اليتيمة العاشقة، في مدينة صيدا، تحمل أمراً من ملك فرنسا بألا يعترضها أحد في روحاتها وغدواتها، بين قلعة البحر وحصون الصليبيين في الأقطار المقدسة، وألا يمس أحد بالسوء ذلك الشاب العربي الذي أنقذته الفتاة من الموت!

وأقامت سيلفي في الشرق ثلاث سنوات أخرى تسهر على راحة الشاب المريض وتحنو عليه حنو الأم على رضيعها، والعاشقة على حبيبها!

ولكن الموت سطا عليه في سنة ١٢٥٧ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٥٥ للهجرة، فحمله فريق من جنود الحامية إلى خارج أسوار المدينة..

وهناك، شهرت سيلفي دي بوفال وجه الحبيب بدموعها، وطبعت على جبينه قبلتها الأولى، وسلمت الجثة إلى جماعة من بني قومه، فنقلوها في هودج إلى مضارب الحي في جبال "وادي التيم" حيث دفنت بين الصخور.

هناك اقتراح بن طالب بن عدي شيخ قبيلة "العوادي" من بطون حمير، التي التحق رجالها بأبطال الفتح الإسلامي وأبلوا في الميادين أحسن بلاء..

أما سيلفي فقد عادت إلى وطنها، ودفنت نفسها في دير قصي في سهول نورمنديا، حيث قضت حياتها في عبادة الله والبكاء على حبها الضائع..

الحب الذي ظل بلا أمل، ولم يؤمن للفتاة السعادة والهناء، لا مع ابن عمها الإفرنجي، ولا مع صديقها العربي!

الرسالة المزيفة



يعمد القواد في الحروب إلى الخداع لأنه أحياناً أشد فتكاً من الأسلحة!

بعد أن أمن الملك "الظاهر بيبرس البندقداري" البلاد المصرية من خطر الغزو المغولي، عهده إلى تثبيت حكمه وتقوية مركزه في الأقطار المجاورة، يشد أزر عملائه في فلسطين ولبنان وسورية، وكان هناك فريقان يخشى السلطان بأسهما: الإسماعيليون في حصونهم المنيعة بأرض اللاذقية وجبال عكار، والرهبان الفرسان الصليبيون في القلاع التي احتفظوا بها في سورية الوسطى والشمالية، وأشدها خطراً على مواصلات الدولة المصرية والأقاليم التابعة لها "حصن الأكراد" وأعظم المعاقل وأكثرها مناعة في تلك البقاع.

وبدأت سلسلة جديدة من الغزوات والحملات العسكرية، أبلى فيها الجيش المصري أحسن بلاء، وأضاف إلى انتصاراته السابقة انتصارات جديدة رائعة، فاتسعت حدود السلطنة المصرية بين سنتي ١٢٦٧ و١٢٧٢ للميلاد، الموافقتين لسنتي ٦٦٥ و٦٧٠ للهجرة حتى بلغت نهري دجلة والفرات بالعراقيين.

سقطت في بادئ الأمر قلاع الإسماعيليين في قبضة "بيبرس"، وتطلع

السلطان إلى "حصن الأكراد" الرابض على قمة ترتفع إلى سبعمائة وخمسين متراً عن سطح البحر، على مسافة أربعين كيلو متراً من الساحل، في الطرف الجنوبي لجبال "النصيرية"، فمن ذلك الريف الحصين كان الفرسان الرهبان يشرفون على الطرق الموصلة بين الموانئ على البحر المتوسط، ووادي نهر العاصي والمدن القائمة على ضفافه وأهمها مدينة حمص. وكان الصليبيون يسمونه "حصن الفرسان" والعرب يسمونه "حصن السفح"، فلما حل فيه جنود صلاح الدين، عرف باسم "الأكراد" نسبة إلى أولئك الجنود وقائدهم العظيم.

وقد شعر الفرسان الصليبيون باقتراب الخطر منهم، بعد تشتت "الاسماعيليين" والتجاء فريق منهم إلى القلاع الصليبية، فانصرفوا بكليتهم إلى تحصين معقلهم وتزويده بالمؤن والعتاد، وتأهبوا لمقابلة الهجوم المنتظر بكل ما يملكونه من قوة وعدة وعدد .. وفي أوائل سنة ١٢٧١ للميلاد الموافقة لسنة ٦٦٩ للهجرة بدأ الملك الظاهر زحفه شمالاً ووجهته حصن الأكراد. فانضم إليه طلاب الثأر من الأمراء والحكام الذين كان الفرسان الصليبيون يرهقونهم بمطالبهم الكثيرة المستمرة، إذ كانت كتائبهم تنطلق بلا انقطاع من ذلك الوكر المنيع، فتجوب السهول والجبال، وتغزو ضفتي نهر "العاصي" وتفرض الجزية والضرائب والرسوم، وتعود إلى وكرها محملة بالأسلاب والأموال. ولما عول بيبرس على التخلص من الإسماعيليين والفرسان معاً، كان هؤلاء يتقاضون مبالغ كبيرة من المال كل عام من أمراء حماه وحلب وحمص، ومن زعماء الإسماعيليين، فضلاً عن خراج الكنائس والمزارع التي يملكونها في أنحاء البلاد. وكانت تلك الأموال تكدس في أقبية

الحصن، في مكان لا يعرفه غير قائده وأقرب المقربين إليه. ولكن دافعي تلك الجزية تمردوا على الفرسان في خلال الصراع الذي نشب بين السلطان والإسماعيليين، ثم هرعوا إليه لمقاتلة الصليبيين عندما اعتزم مهاجمتهم في عقر دارهم، وفي مطلع شهر فبراير سنة ١٢٧١، كانت جيوش بيبرس وحلفاؤه تضرب الحصار حول حصن الأكراد تمهيداً لمهاجمة أسواره وأبراجه..

* * *

كان دفاع الفرسان عن حصنهم رائعاً مجيداً، ولم تقل مقاومتهم عن هجوم أعدائهم شدة وعتاداً فقد سفح الجبل الأجرد، خلال أيام وأسابيع متعاقبة، أسوداً تنافح أسوداً. وردد الصدى من واد إلى واد قعقعة السلاح وصياح المتحاربين على نور الشمس وضوء القمر وفي الليالي القائمة سواء بسواء، وتبارى الفريقان في ميدان القتال وحلبة البطولة ومضمار التضحية، وراح النصر يبتسم يوماً لهذا ويوماً لذاك، الي أن أدرك قائد الرهبان الفرسان في النهاية أن الدائرة دائرة عليهم إن عاجلاً وإن أجلاً، وأن مقاومتهم لن تنقذهم من الهلاك مهما تطل مدتها، فأراد أن يعلن باسم رجاله رغبته في وضع حد لذلك النضال المرير، ويطلب وقف القتال والدخول في مفاوضة لوضع شروط التسليم، ولكن معاونيه في القيادة لم يوافقوه على رأيه، بل قرروا المضي في المقاومة حتي ينفذ منهم الزاد والماء، أو ويؤخذ منهم الحصن عنوة واقتداراً!

وشدد "بيبرس" الهجوم فاقتحم بابين من أبواب المعقل واحتل جزءاً من الأسوار، ولكنه عجز عن اقتحام الأبراج فيصل إلى الحياة والخداع وهما

سلاحان كانا –ولا يزالان– من الأسلحة الشائعة في الحروب!

فقد وصل إلى الحصن في يوم ما رسول يحمل إلى قائد الفرسان خطاباً من أمير طرابلس الصليبي. يطلب فيه إلى حماة الحصن أن يسلموه للسلطان المصري حقناً للدماء، إذا وافق السلطان على منحهم شروطاً مشرفة للتسليم..

وكانت هذه الإشارة التي تلقاها القائد من رئيسه الأمير تتفق مع رغبته في وضع حد للقتال، فدعا معاونيه مرة أخرى إلى مجلس حربي؛ وعرض عليهم فكرته الأولى من جديد، ودعمها بالرسالة التي وصلت إليه من صاحب طرابلس، فاقتنعوا في هذه المرة، وعهدوا إليه في إجراء المفاوضة.

وقبل "بيبرس" المفاوضة وهو يضحك في سره، لأن الرسالة لم تكن من صاحب طرابلس، بل كانت من صنع يده هو نفسه. فقد كتبها وأوصلها إلى قائد الحصن الذي وقع في الفخ وطلب التسليم؟

وفي اليوم الثامن من شهر أبريل سنة ١٢٧١، الموافقة لسنة ٦٦٩ للهجرة، كف الفريقان عن القتال، وقدم الرهبان شروطهم إلى "بيبرس البندقداري"، وتم الاتفاق على أن يخرج الفرسان من حصنهم معززين مكرمين، وأن يحتفلوا بأسلحتهم ودروعهم وخوذاتهم. وأن يأخذوا معهم ستين جواداً بعدتها الكاملة أيضاً، وأن يحمل كل منهم ألف قطعة من الذهب لا أكثر، وأن يحملوا عشرين من البغال والحمير ما يكفي من المئونة والزاد لمدة شهر كامل، وأن تأخذ النساء ما يحلو لهن أخذه من الذهب أيضاً لكل امرأة، أما الذين كانوا في الحصن من أصدقاء أو خلفاء وخدم

أو أسرى من أبناء البلاد، أياً كان مذهبهم، فيترك لهم الخيار في مرافقة الفرسان الرهبان في رحيلهم، أو البقاء في الحصن، على أن يؤمنهم الغالبون على أرواحهم، ويتعهدوا لهم بتوفير وسائل السفر لهم فيما بعد إذا رغبوا في ذلك.

ونفذت الشروط بأمانة وصدق من الطرفين. وابتعدت قافلة الفرسان الصليبين مزودة بالتحيات الطيبات ممن كانوا بالأمس أعداء يقذفون الأسوار بالنبال ويدفون أبوابها بالمجانيق، وأصبحوا بين ليلة وصباح أصدقاء أزالت معاهدة الصلح كل حقد من نفوسهم.

وقد عرف الصليبيون أمر الرسالة المزيفة التي تلقاها قائد الحصن في أثناء الحصار، بعد أن فات الوقت وانقضى كل شيء.

واعتزم "بيبرس البندقداري" الإقامة مدة من الزمن في حصن الأكراد، لترميم ما خربه الحصار فيه، ووضع حامية تحتله وتدافع عنه فيما بعد لو خطر لعدو أن يهاجمه من جديد.

أما الذين كانوا داخل الأسوار من غير الرهبان الفرسان، فقد رحل بعضهم، وبقى البعض الآخر. وأما الأسرى، فقد أعاد "بيبرس" إليهم حريتهم، وكان بينهم خمسة من الجنود المصريين فالتحقوا بجيش السلطان فرحين مهللين!

لم يبق من النساء في حصن الاكراد غير واحدة، ولم تمض على سقوطه إلا أيام حتى طلبت هذه المرأة مقابلة السلطان لاطلاعه على سر لا يعرفه أحد غيرها!

وأجابها "بيبرس" إلي رغبتها. وإذا به أمام امرأة في العقد الخامس من العمر، قوية البنية، جهورية الصوت، يبدو لمن تخاطبه أنها ألفت حياة الخشونة في العراء، وأن يديها خاليتان من نعومة أيدي ربات الخدور، وعينيها لا ترهبان بريق السيوف ورؤية الدماء تسيل في المعارك: أنها امرأة محاربة، من أولئك النسوة المحاربات اللواتي كثيراً ما كن يرافقن الرجال في غزواتهم وفتوحاتهم، ويذكين في صدورهم نار الحماسة في الميادين..

وأفضت المرأة إلى السلطان بالسر الذي قالت أنها تعرفه دون سواها من الناس:

– أيها المولى ... إن التي تحدثك الآن مصرية من مدينة دمياط..

وما اسم هذه المصرية التي أفاجأ الان بلقائها في حصن كان بيد الصليبيين منذ أكثر من ثلاثين سنة حتى يومنا هذا؟

– أسمها "حسنة" وهي أخت الجندي المصري "مُحَمَّد طوبر".

– وأين هذا الجندي؟

– كان أسيراً عند الصليبيين في طرابلس، ثم هرب من الأسر ولجأ إلى الإسماعيليين فأجاروه.

– وهل كنت معه في الأسر؟

– كلا! .. بل لحقت به من مصر، لما بلغني ما حل به ... ولاقيت من الأهوال ما لا يتصوره خيال ... حتى أخذ الله بيدي، واجتمعت بأخي بعد فراق دام خمسة أعوام...

- وهل كنت معه في بلاد الإسماعيليين؟

نعم ... وتزوجت رجلاً منهم، هو مبروك بن سلمان الذي تشاجر مع فريق من إخوانه، وهرب من قلعته، واحتمى بالرهبان الفرسان في هذا الحصن، وأنا معه...

- وأخوك؟

- قتل يا مولاي! .. قتل والسلاح بيده، في حومة الوغي!

- ومن العدو الذي كان يحاربه؟

- لم يكن أخي يقاتل عدواً، بل كان يحارب أصدقاء واخواناً!

- ماذا تعنين؟

- لما هاجم جشك أيها المولى حصون الإسماعيليين، كان أخي ضيفاً على القوم. فحارب في صفوفهم؟

- حاربني أنا؟

- نعم ... وسقط قتيلاً بيد مصرية!

- هذا فظيع!

- نعم: هذا فظيع!.. فقد حارب أخي مواطنيه المصرين، وحارب زوجي مواطنيه الإسماعيليين!

- وأين زوجك الآن؟

– قتل أيضاً ... لأنه كان ضيفاً على الرهبان الفرسان، فحارب في صفوفهم!

– حاربني أنا؟ .. مثل أخيك؟ ..

– نعم .. وقتل مثله بيد مصرية!..

وستقول لي أن هذا فظيع أيضاً، وستكون أيضاً صادقاً!.

سكت بيبرس. وسكتت المرأة، ولكن السلطان مزق السكوت بلهجة جافة، سائلاً:

– وماذا تريدين الآن؟

– أريد أن أكفر عن ذنوب أخي، وعن ذنوب زوجي! .. إنني أرغب إليك في أن تسمح لي، أنا "حسنة" الدمياطية بأن تلتحق بجيشك، وأن أكون لرجالك دليلاً في هذه الجبال والسهول، لأن حسنة تعرف الطرق والمسالك كلها، ولا تخطيء في كشف أثر أو كمين، وفي وسعها أن تنازل بالسيف أو الرمح أو القوس أشجع الفرسان وأمهر الرماة!

– سيكون لك ما تريدين يا حسنة ... ولكن: هل هذا هو السر الذي أشرت إليه؟

– كلا ... هذه أمنية تحققت، وأرجو ألا تندم أيها المولى على تحقيقها لي. أما السر، فإليك فحواه: أن هؤلاء الفرسان الرهبان، الذين وافقتهم على شروطهم، وتركتهم يرحلون بسلام وأمان، حاملين معهم أموالاً وزاداً وسلاحاً، يملكون كنزاً لا يفنى! وقد انتظرت أياماً لكي يفرغ

رجالك من إحصاء ما وجدوه في قاعات هذا الحصن وأقبيته من نقود وحلى وأسلحة ودروع وطعام، فإذا بهم لا يعثرون إلا على القليل منها. ولهذا جئتك الآن لأروي لك ما أعلم: فقد شاء القدر أن أصغي يوم مصرع زوجي إلى حديث دار بين قائد الحامية الصليبية في الحصن واثنين من أعوانه. وكان الرجل بدل رفيقيه على المكان الذي خبأ فيه كنز الرهبان قبل أن يطلب الأمان ويسلمك الحصن..

- وهل عرفت المكان؟

- إليك الكلمات التي سمعتها. فإنني أرددها عليك كما طبعت في صفحة ذاكرتي:"... بعد الدهليز الواسع ... أمام باب القاعة الثالثة ... ثلاث خطوات .. ثم إلى اليمين في الدهليز الضيق ... تحت الكوة الأولى .. خطوتان .. الصليب الرابع ... عدد الخطوات نفسها ابتداء من دهليز البرج .. أمام .. الثالثة .. أربعة مخابئ تحوي كل شيء ..".

***

وسكتت المرأة .. وهز بيبرس رأسه قائلاً:

- وما معنى هذه المعميات يا حسنة؟ وهل تعتقدين أن هذه الكلمات المنقطعة يمكن أن تدلني على الطريق المؤدية إلى كنز الرهبان؟.

ومن أين لك العلم بأن للرهبان كنزاً، وان هذه الإشارات الغامضة مفتاح ذلك الكنز؟

- لقد سمعت أول الحديث وآخره أيها المولى. وكان الرجل يخاطب رفيقيه

بصوت خافت، ففاتتني عبارات. والتقطت عبارات.

لقد قال لهما في نهاية حديثة أن الأموال والجواهر والحلى والأسلحة الثمينة والآنية الذهبية والفضية كلها وضعت في صناديق من الخشب المتين ودفنت في أماكن أربعة، في الأقبية والدهاليز...

وكان هناك اثنان آخران من الرهبان يعرفان سر الوصول إليها ولكنهما قتلا أثناء الحصار، فأفضى قائد الحصن إلى اثنين غيرهما بالسر لكي يبقى عدد الذين يعرفونه ثلاثة من حماة الحصن ... ولو حاول رجالك الوصول إلى المخابئ، مستعينين بالكلمات التي تمكنت من التقاطها، فقد يساعدهم الحظ، ويعثرون على الكنز، أو على بعضه!

***

قضى رجال "بيبرس البندقداري" عشرة أيام في البحث والتلمس والحفر والتنقيب، عثروا في نهايتها على صندوق واحد يحوي مائة ألف قطعة من الذهب، وصندوق آخر فيه سيوف وخناجر مرصعة بالحجارة الكريمة .. وواصلوا البحث فيما بعد عشرات من الأيام والليالي، ولكنهم لم يعثروا علي شيء آخر. فقد ظل الحصن محتفظاً بسره، وظلت الأقبية منطوية على كنزها!

وعاد بيبرس إلى مصر. وتخلفت حسنة الدمياطية أخت مُحَمَّد طوبر وزوجة مبروك بن سلمان في حصن الأكراد. واستأنف رجال الحامية بإرشادها مساعيهم للعثور على مزيد من الأموال أو الحلي أو الأسلحة. ولكن تعبهم ذهب سدى!..

ومرت أعوام نسى الناس فيها حكاية الكنز. ولكن السلطان قلاوون، الذي جدد جزءاً من أسوار الحصن في سنة ١٢٨٥ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٨٤ للهجرة، تذكر ما كانت تلوكه الألسنة في هذا الصدد، وأر باستئناف البحث مرة أخرى، بإرشاد الدمياطية التي تقدمت بها السنون. فخاب أمله كما خاب أمل غيره من قبل ومن بعد..

***

ولا يزال "حصن الأكراد" إلى أيامنا هذه قائماً في مكانه على قمة الجبل، أسراره باقية كما كانت يوم سقوطه في قبضة بيبرس البندقداري، وأبراجه تناطح الفضاء وتستقبل أسراب الطيور الحائمة فيها، وقاعاته وردهاته ودهاليزه تضم بين جوانبها ذكريات العهود الماضية، المفعمة بالبطولة والآباء والمجد ، وقد مرت الأجيال متتابعة، وانقرضت دول وحلت محلها دول. وحصن الأكراد اليوم يقع في أرض سورية، وتشرف حكومة دمشق على صيانته والعناية به..

ولكنه اليوم ليس مسرحاً لقتال ولا موضعاً لحصار .. إنما هو أثر ضخم من آثار الماضي، بل هو أعظم وأبدع وأكمل حصن من الحصون الصليبية الباقية في الشرق، وأروع تحفة من تحف الفن المعماري الحربي في تلك العصور...

وفي جوف أرضه، وتحت حجارة دهاليزه المظلمة، وفي حراسة أبراجه وأسواره، وعلى مقربة من الأماكن التي يلجأ إليها سكان القرى والجبال في الشتاء مع قطعانهم ومواشيهم، يرقد كنز الرهبان الفرسان الصليبين، في

صناديقه الخشبية المتينة، المملوءة بالذهب والفضة، والجواهر والحلى، والأثواب المزركشة، والأسلحة المطعمة بالحجارة الكريمة، والأدوات الكنسية التي افتتنت في صنعها أيدي المهرة من صاغة ذلك الزمن...

الجمال الجاني



جمال الحسناء كان شؤما عليها، وشؤما على الذين فتنهم ذلك الجمال بسحره!

قرر ملوك الغرب وأمراؤه توجيه حملة صليبية جديدة –الخامسة حسب الترتيب التاريخي– إلى الأراضي المقدسة، في خلال العقد الثاني من القرن الميلادي الثالث عشر، والقرن السابع للهجرة.

وكان مفروضاً أن يقود هذه الحملة ملك الإنجليز جان سانتير، وامبراطور ألمانيا فريدريك الثاني، وملك هنغاريا أندراوس الثاني.

لكن ملك الانجليز مات في سنة ١٢١٦ للميلاد، الموافقة لسنة ٦١٣ للهجرة، فتخلف شعبه عن الاشتراك في الحملة.

وانهمك امبراطور ألمانيا في توطيد ملكه بمحاربة الخارجين عليه فامتنع عن القيام بتعهداته.

وثار فريق من الهنغاريين على ملكهم، فقاد الملك اندراوس الثاني ادراجه، بعد أن كان قد غادر بلاده في طريقه إلى الشرق.

ولكن جماعات من رجال الحرب كانوا قد وصلوا إلى مدينة عكاء، فاعتصموا فيها. وظلوا في جدل مستمر سنة كاملة. حتى تولى قيادتهم، في

النهاية "جان دي يربين" الفرنسي، وكان يحمل ثقب على يد صلاح الدين. غير أن اللقب توارثه ملوك كان لهم من الملك اسمه، ولم يكن لهم عرش ولا صولجان.

واختار جان دي بريين طريق السير لجيشه الصليبي. وبدل أن يتجه به إلى بيت المقدس لاسترجاعه، قرر الزحف على مصر، لكي يضرب الأيوبيين في مقر حكمهم، بالقاهرة!

في أثناء ذلك، مات الملك العادل سيف الدين أبوبكر، سلطان الديار الشامية والسورية، وخلفه اثنان من أبنائه: الملك الكامل نصر الدين في مصر، والملك الأعظم خير الدين عيسى في دمشق. وتمكن الصليبيون من الاستيلاء على ميناء دمياط في سنة ١٢١٩ للميلاد، الموافقة لسنة ٦١٦ للهجرة.

ولكنهم لم يحتفظوا بها مدة طويلة. فقد هاجمهم المصريون على حين كانت مياه فيضان النيل تتدفق على جانبي النهر العظيم، فتقطع المواصلات وتغرق السهول، وأرغموهم على الارتداد إلى الساحل، ثم على الجلاء من دمياط، فأبحروا منها عائدين إلى معاقلهم في سورية، وفي سنة ١٢٢١ للميلاد، الموافقة لسنة ٦١٨، للهجرة، كانت الحملة الصليبية الخامسة قد انتهت بالفشل، على ذلك النحو – وانصرف الملك الكامل نصر الدين إلى تعزيز الأسوار، والأبراج، حول مدينة "المنصورة" التي أنشأها على النيل في خلال تلك الحرب، والتي كان مقدراً لها أن يدون اسمها في سجل الخلود، بعد ذلك الوقت بثلاثين سنة!

***

بين الذين وفدوا من الغرب مع الحملة الصليبية الخامسة، النبيل الفرنسي "جان دي جرامون" وكان في الخامسة والثلاثين من العمر، يوم نزل في عكاء والتحق بجيش الملك جان دي بربين الزاحف على مصر.

سكر النبيل الفرنسي بنشوة النصر يوم دخل مدينة دمياط مع الغزاة المنتصرين، ثم ذاق مرارة الهزيمة يوم غرقت فلولهم في أوحال الفيضان، وجلت البقية الباقية منهم عن الميناء المصري، وجنود الملك الكامل يتعقبونها..

واستقر جان دي جرامون في مدينة عكاء، حيث نشأت صداقة متينة بينه وبين التاجر النصراني الشيخ "سعد الخطار" فشاركه في تجارته، وعول على الاقامة في المشرق، وهجر الوطن الذي جاء منه، والتزام الحياد في الصراع القائم بين الملوك والأمراء المسلمين والافرنج، في البلاد الشامية والأرض المقدسة.

ومما جعله يتخذ هذا القرار، أن عاطفة محبة مفاجئة نشأت بينه وبين ابنة شريكه "مريم" تحولت بسرعة إلى حب وهيام.

فتزوج النبيل الفرنسي الفتاة العربية، التي كان الناس يعدونها أجمل بنات النصارى في ذلك الوقت.

وكان الشيخ سعد الخطار يمارس تجارته متنقلاً بين المدن والحصون والقلاع، وهو على أتم وفاق مع أصحابها، سواء أكانوا من الشرقيين أم من الغربيين، من النصارى أم من المسلمين. وكان صهره الفرنسي يرافقه في جولاته وحده أحياناً، وأحياناً مع زوجته مريم. وعاشت الأسرة في بحبوحة

من الرزق، ولكن سعادة الزوجين لم تكتمل لأن الله حرمهما البنين خلال أعوام طويلة!

وساد سلام نسبي مدة من الزمن في الأرض المقدسة، وانحصرت الحب بين الفريقين المتنازعين في نطاق اشتباكات لم تكن لتسفر عن عواقب بعيدة المدى..

وفجأة، وبعد ذلك الهدوء النسبي الذي استغرق بضعة أعوام، هبت العاصفة من جديد بقدوم الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع، في سنة ١٢٤٩ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٤٧ للهجرة.

لم يشترك جان دي جرامون في تلك الحرب لسببين: الأول تمسكه بالقرار الذي فرضه على نفسه بالتزام الحياد. والثاني تقدمه في السن، فقد جاوز النبيل الفرنسي السنين من العمر!

ولكنه تذكر ماضيه بكثير من التأثر، يوم بلغته أخبار الحملة التي قادها ملك فرنسا لاحتلال مصر، ونزولها في دمياط حيث نزلت الحملة السابقة، التي كان جان دي جرامون من رجالها، وانكسار الجيش الفرنسي مرة ثانية على ضفاف النيل، ووقوع الملك في الأسر بعد معركتي المنصورة وفارسكور، في سنة ١٢٥٠ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٤٨ للهجرة!

ورأى جان دي جرامون بعينيه فلول الحملة المهزومة تعود إلى الأرض المقدسة، في تلك السنة، كما عادت إليها قبل ذلك الوقت بثلاثين سنة، حملة جان دي بريين المهزومة!

***

وساورت الأحزان النبيل الفرنسي الشيخ. وتلاطمت في صدره الشجون. وتولته فجأة رغبة ملحة في العودة إلى وطنه، بدافع من شعور حار الرجل في تفسيره، بعد تلك الغيبة الطويلة، وبعد أن أصبح الشرق له موطناً، ولغة القوم فيه لغته، وعاداتهم وتقاليدهم عاداته وتقاليده!

أما استبدل ثوباً بثوب، فأرتدى اللباس العربي، وطوق رأسه تارة بعمة وتارة بعقال، ونسى أو كاد أن ينسى كيف كان يعيش في أسرته وبيئته، قبل أن ينزل في عكاء جندياً شاباً، مع الحملة الصليبية السابقة؟

أفضى الى زوجته المحبوبة بما جال في خاطره، وسألها إن كانت تشاركه الرغبة في الرحيل إلى فرنسا: فجفلت المرأة واضطربت، وكان مردها سريعاً وحاسماً:

أيها الحبيب العزيز، انني أدرك معنى تلك الرغبة التي استولت عليك بين مساء وصباح. ولكنني لا أشاطرك إياها, فقد مات أبي منذ أعوام وترك لي، ولك، ثروته الطائلة. وقد تم الاتفاق بيننا، أنت وأنا، على أن تنفق هذه الثروة في أعمال البر والاحسان والخير، لا فرق في نظرنا بين كنيسة وجامع، ولا بين نصراني ومسلم، أو عربي وغربي. ولم يرزقنا الله أبناء يحملون اسمنا من بعدنا، فعولنا على أن نجعل جميع الأطفال اليتامى والمحزونين أبناء لنا، في طول هذه البلاد وعرضها!

وسكت جان دي جرامون. واقتنع بالبقاء في الأرض التي أصبحت وطناً له، لأنها وطن زوجته المحبوبة.

وكان الله أراد، بحكمة من عنده، أن يضيء ظلمة شيخوخته، وينسيه

وحشة غربته، فرزقه في آخر أيامه بنتاً أطلق عليها الرجل اسم "نور" العربي، قائلاً أنها الشعاع الذي ينير حياته وقد أشرفت على نهايتها.

وكان جان دي جرامون قد بلغ الخامسة والستين من العمر، وكانت زوجته دون الخمسين. وقد عد الناس ذلك الحادث السعيد أعجوبة من الله. وبركة من السماء!

وفي سنة **١٢٥٨** للميلاد، الموافقة لسنة **٦٥٦** للهجرة، فاضت روح جان دي جرامون في مدينة طرابلس، وقد أشرف على نهاية العقد الثامن من العمر. ودفن في قلعة (سان جيل) المشرفة على المدينة "المثلثة".

وبقيت نور دي جرامون، مع أمها مريم ابنة سعد الخطار، وفي حماية الأمراء والاقيال الصليبيين والمسلمين على السواء، في ربوع الشام وجبال لبنان وهضاب فلسطين، إلى أن لبت الأم دعاء ربها، في سنة **١٢٦٤** للميلاد، الموافقة لسنة **٦٦٢** للهجرة، في مدينة طرابلس أيضاً فدفنت في الضريح الذي ضم رفات زوجها من قبل.

***

أحاط حكام طرابلس الفتاة اليتيمة بعنايتهم ورعايتهم. ولما بلغت الصبية السادسة عشرة من العمر، جعل جمالها يلفت الأنظار، ويثير العواطف في الصدور!

كانت أمها مريم أجمل نساء النصارى في شبابها وكهولتها، فجاءت نور مثل أمها أجمل الصبايا في الحصون والقلاع والمدن والجبال!

أنها طويلة القامة، ممشوقة القوام، ينبعث من عينيها بريق هو والسهام سواء، فيمزق الدرع ويخترق الصدور وينفذ إلى القلوب.

ونسترسل على كتفيها جدائل شعر أسود، يتماوج كصفحة البحر يعلوها الزبد لحظة ثم يختفي لكي يعود فيختفي ثانية، ويبرز من صدرها المرمري نهدان مكعبان، وتطفو على شفتيها الورديتين ابتسامة أخاذة ساحرة، لا تفارقهما في الصحو ولا في الرقاد، ويشع من ذلك الوجه الفتان حسن يسلب الألباب ويضعضع الرءوس!

وصفوة القول، كانت نور دي جرامون، التي يسميها الأفرنج "نورا دي جرامون" من أولئك النساء المتحليات بجمال لا عيب فيه، واللواتي تقذف بهن الأقدار من وقت لآخر إلى هذا العالم، لكي يجنين بجمالهن على الرجال، ثم يجنين به على نفوسهن!

وهذا ما حدث لنور دي جرامون، ابنة جان دي جرامون الفرنسي ومريم بنت الخطار السورية.

***

في سنة ١٢٦٨ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٦٦ هجرية. كانت نور تقيم في قلعة سان جيل في طرابلس، وكان الفرسان الصليبيون في تلك السنة قد خرجوا للضرب والطعان، ولم يبق منهم في القلعة غير عدد صغير، لا يتجاوز أصابع اليدين..

وكان بين أولئك الباقين في القلعة اثنان من أبناء الأشراف الفرنسيين، أحدهما يمت بالنسبة الى أسرة لوسينيان الشهيرة، والآخر من أقارب جان

دي جرامون، يدعى لويس دي جرامون..

وكان الاثنان من عشاق نور الفاتنة، أخذا بجمالها، وعلقا بها، وقامت بينهما عداوة شديدة بسبب تلك الفتاة التي اعرضت عن الاثنين ولم يبد منها ما يشجع أحدهما على المضي في حلمه الغرامي...

واغتنم الشابان فرصة غياب الفرسان عن القلعة، لتعقب الفتاة في روحاتها وغدواتها، والإلحاح عليها بأن تبادلهما الحب وتهبهما جمالها.

وكان لابد من وقوت اصطدام بين العاشقين. وقد وقع ذلك الاصطدام وأدى بهما إلى المبارزة تحت أسوار القلعة، فقتل لويس دي جرامون بطعنة سددت إلى صدره.

وخطبت الفتاة شاباً من أشراف مرسيليا، أحبها وأحبته، فهوجم الشاب ذات ليلة وهو عائد إلى القلعة، وقتل قبل أن يصل إلى أبوابها واعترف أحد الفرسان بأنه قاتله لأنه يحب الفناة نور دي جرامون ولا يطيق صبراً على رؤيتها ملكاً لغيره!

وانقضت عشرة أعوام والفتاة لم تتزوج، ولكن جمالها ظل يفتك بالشبان والعشاق، فوقعت عشرات المبارزات بينهم بسببها، ونزل إلى ميدان المزاحمة عليها أبناء الأشراف وأبناء الشعب على السواء!

سطت الحسناء بجمالها على القلوب، ولكنها في آن واحد جلبت لنفسها المتاعب والمخاطر!

عقد الأمراء والأقيال مجلساً وتبادلوا الآراء في تلك الحالة الخطيرة

وقرروا فيما بينهم أن يرسلوا الفتاة الى الحصون النائية فيحول بعد المسافة بينها وبين أولئك الذين لعب جمالها برؤوسهم!

ولكن انتقال نور دي جرامين من السواحل إلى المناطق الجبلية لم يمنع جمالها من البقاء على حالته من البهاء!

وبلغ خبرها مسامع الأمراء والحكام المسلمين في مدن سورية وفلسطين، فعزموا على مهاجمة الحصون التي تلتجئ إليها نور دي جرامون لحماية جمالها من فرسان الصليبيين، ولحماية نفسها من ذلك الجمال، فجعلوا يبثون الأرصاد في كل مكان، ويحملون بجموعهم على كل حصن تجتاز أسواره، فيتقاتل العرب حول الحصن، وتمتزج في البطاح دماء العرب بدماء الافرنج، وتشبع الجوارح والضباع من لحوم الضحايا - ضحايا الجمال الجاني الذي تجسم في شخص نور دي جرامون!

وفي سنة ١٢٨١ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٧٩ للهجرة، عادت المرأة الفاتنة، وقد بلغت الثلاثين من عمرها، إلى قلعة طرابلس، تعبة راغبة إلى مضيفيها من الأقيال الصليبيين في أن يمهدوا لها سبيل الرحيل عن الشرق والابحار إلى فرنسا، قائلة إنها وطدت العزم على دخول الدير وارتداء ثوب الراهبات، هرباً من الرجال وهرباً من جمالها، وقد أصبح عبثاً تنوء تحته منهوكة القوى!

فأجابها الأقيال إلى رغبتها، وفي سنة ١٢٨١ صعدت نور دي جرامون إلى سفينة فرنسية، وأبحرت السفينة في ذلك اليوم قاصدة إلى بلاد الإفرنج!

ولكن الأقدار أبت أن تختم المأساة عند هذا الحد!

ففي اليوم التالي، هبت عاصفة هوجاء أرغمت السفينة على العودة إلى طرابلس. وعندما اقتربت من الشاطئ، قذفت بها الرياح فتحطمت وغرق فريق من ركابها وانقذ الفريق الآخر..

وكانت نور دي جرامون بين من قدرت لهم النجاة، فعادت إلى قلعة سان جيل، واعتقدت منذ ذلك الوقت أن الله عز وجل يريد لها البقاء في الشرق، وأنه أثار تلك العاصفة لمنعها الرحيل إلى حيث تريد!

وعاد العشاق إلى التناحر بسببها. وزاد الطين بلة، أقدام اثنين من أبطال الحروب العرب، على محاولة خطفها من القلعة التي أقامت فيها فتصدى لهما فريق من الفرسان الإفرنج، وقتلوا أحدهما، وهو الأمير طالب الشهابي من وادي التيم، وتمكن رفيقه، عادل الحمدان، من الافلات منهم، بعد أن ثأر للقتيل بقتل فارس صليبي، ولم يكن ذلك الفارس غير النبيل العاشق من أسرة لوسينيان، الذي قتل، قبل ذلك اليوم ببضعة أعوام، غريمه لويس دي جرامون، في طرابلس في مبارزة كانت الفتاة المشئومة موضع الرهان فيها!

على أثر ذلك الحادث، الذي أشتبك فيه الفارسان العربيان مع الفرسان الإفرنج غادرت نور دي جرامون قلعة سان جيل، وجعلت تتنقل من جديد، من حصن إلى حصن ومن بلدة إلى بلدة، والمصائب تلازمها، والموت يحل معها في المكان الذي تحل فيه!

وانتهى بها المطاف أخيراً إلى مدينة عكاء، وكان ذلك في سنة ١٢٨٨

للميلاد، الموافقة لسنة ٦٨٧ للهجرة.

وهناك، ذاقت نور دي جرامون بعض الراحة فترة من الزمن ثم هبت فجأة على تلك المدينة الحصينة عاصفة جنون غرامي كالتي اكتسحت من قبل عقول الفرسان وقلوبهم في طرابلس وغيرها..

ووقعت مبارزات عديدة، داخل أسوار عكاء وخارجها، بسبب نور دي جرامون، ذات الجمال الساحر الجاني!

وأوشك أمراء الإفرنج في عكاء أن يطردوا تلك القناة الخطرة من مدينتهم، خوفاً من فتنة عامة يسببها جمالها بين فتيانهم وجنودهم. ولكن حادثاً لم يكن في الحسبان غير مجرى الأمور واسترعى اهتمام الناس: ذلك الحادث هو قيام الملك الأشرف خليل ابن قلاوون بجيشه إلى عكاء لانتزاعها من قبضة الافرنج!

كان السلطان بيبرس البندقداري قد استولى على يافا وانطاكية وغيرهما من مدن الصليبيين. واستأنف السلطان قلاوون الألفي مهاجمة الإفرنج بعد ذلك، فاستولى في سنة ١٢٨٩ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٨٨ للهجرة على بعض مراكزهم وانتزع منهم مدينة طرابلس، وجاء بعده الملك الأشرف خليل بن قلاوون، يسعى لطرد البقية الباقية من الصليبيين في تلك الديار.

يقول الحريري: "إن الملك الأشرف توجه لغزو عكاء ونازلها رابع شهر ربيع الأول بجيوش الإسلام وبأمم لا يحصى عددهم. وجدوا في الحصار وثبت فيها الإفرنج ثباتاً عظيماً، فجاء الملك المظفر صاحب حماة

وعساكره ومعه الملك الأفضل. وأخذوا معهم من حصن الأكراد المنجنيق العظيم الملقب بالمنصوري، حمل علىماية عجله. وزحف الجيش إلى عكاء سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادي الأول. فارتجت الأرض بضرب الطبول واشتد عليها الحصار، وحين لاحق المسلمون السور هرب الإفرنج إلى البحر. وارتفعت رايات الاسلام ونكست رايات الإفرنج وعمل السيف فيهم عند طلوع الشمس. وهدمت أبراج عكاء وأسوارها. وغنمت العساكر غنائم كثيرة وقتلوا الأفرنج الذين أمسكوا بهم عن آخرهم. ولم يفلت إلا الذين هربوا في المراكب. ويأمر السلطان بهدم المدينة إلى الأرض فدكت دكاً، وكان هذا الفتح في ١٩ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هجرية!"

ويوافق هذا التاريخ الثامن والعشرين من شهر مايو سنة ١٢٩١ للميلاد.

على حين القتال محتدم في المدينة، أدركت نور دي جرامون أن عكاء ساقطة لا محالة في قبضة المسلمين، وأنها ستساق ذليلة إلى حيث يريد الغالبون!.

فحاولت أن تهرب إلى المراكب الراسية في البحر مع من هرب إليها، ولكنها لم تفلح في محاولتها, فأثرت الموت على البقاء حية والوقوع في الأسر...

وبينما جنود الملك الأشرف يطاردون الرجال في أزقة المدينة وداخل مكامن حصونها، ويلتقطون النساء الهائمات على وجوههن هنا وهناك، رأوا امرأة بارعة الجمال، تصيح صيحة اللبؤة الجريحة، وتقذف بنفسها إلى

الماء من أعلى أحد الأبراج المشرفة على البحر.

وهكذا ماتت نور دي جرامون التي يعرفها الإفرنج باسم "نورا دي جرامون" والتي جنى جمالها على عشرات الفرسان، ثم جنى عليها فراحت ضحيته طعمة للأسماك في بحر عكاء!

السلطان والطبيب

انقسام المسلمين ضمن النصر للصليبيين..
وانقسام الصليبيين ضمن النصر للمسلمين.
والاتحاد أساس القوة، في كل آن ومكان!

أربعون ألف فارس ومائة ألف راجل: ذلك هو الجيش الذي غمر به السلطان قلاوون الديار الشامية، لاسترجاع ما يمكن استرجاعه من المدن والمعاقل الباقية في قبضة الصليبيين.

حالف النصر أعلام السلطان، واستولى على بعض تلك المعاقل والمدن، وفي شهر مارس سنة ١٩٨٩ ميلادية، الموافقة لسنة ٦٨٨ للهجرة، ضرب الحصار على مدينة طرابلس، ونصب حولها عشرين من مدافعات القذائف: وجاء بألف وخمسمائة من الخبراء في بث الألغام، وطلب منهم العمل ليلاً ونهاراً في تقويض الأسوار وإحداث الثغرات فيها.

كانت طرابلس تعاني أزمة لم يكن من السهل علاجها والخروج منها .. فتد حكمتها أسرة فرنسية خلال قرنين من الزمان، وجعلت منها عاصمة لإمارة ضمت جزءاً كبيراً من جبل لبنان، وميناء زاهرا تركزت فيه الحركة التجارية والصناعية في الشرق الأدنى، وقاعدة حربية منيعة يطل عليها

حصن ضخم شديدة أميرها ريمون دي سان جيل، وعرف باسم "قلعة سنجل" أو "سان جيل" حتى أيامنا هذه.

وانقرضت الأسرة التي حكمتها فنشأ نزاع بين الطامعين في الاستئثار بالسلطة فيها، وبعد مشاحنات ومؤامرات عديدة، تولت أمرها امرأة تمت بالنسب الى أسرة سان جيل، الأميرة "لوسيا" التي اضطرت إلى قبول حماية جمهورية "جنوى" ضماناً لسلامة المدينة.

أدرك قلاوون أن انقسام الصليبيين على أنفسهم، وتخاذلهم وتناحرهم وتنافس زعمائهم على السلطة، كل ذلك من شأنه أن يضعف مركزهم ويعهد السبيل لقهرهم، كما حدث قبل ذلك بمائتين من السنين، يوم اغتنم الصليبيون فرصة تناحر المسلمين في الشرق وتخاذلهم وانقسامهم بعضهم على بعض، فضربوا ضربتهم واستولوا على سورية وأقاموا في فلسطين دولة أورشليم، وأنشأوا حولها امارات صغيرة تابعة لها، منها امارة طرابلس بلبنان

شعر الصليبيون بالخطر بعد تفاقمه. وبدئوا يعدون عدتهم للمقاومة ولكن بعد فوات الوقت، ونسوا خلافاتهم في ساعة الشدة ولكن بعد أن ضاعت منهم فرصة الاستعداد والتأهب للمعركة!

طلبت لوسيا النجدة من كل صوب. فأسرع إليها غليوم رئيس فرسان الهيكل، وأرسلت إليها جمهوريتا جنوى والبندقية سرباً من السفن المحملة بالرجال والعتاد والمؤن، وأوفد إليها هنري ملك قبرص أخاه أموري على رأس قوة من الفرسان، وجاء غير هؤلاء من المواقع التي كان الصليبيون باقين فيها، وأملهم جميعاً أن يفكوا الحصار الذي ضربه قلاوون على المدينة.

***

جعل القتال يشتد يوماً عن يوم. وكل من الفريقين يعلم أن مصير المدينة وإمارتها مرهون بنتيجة ذلك الحصار، وأن سقوط طرابلس معناه، في المستقبل القريب، ضياع ما تبقى من ممتلكات الصليبيين على طول الساحل وفي قلب الجبال.

وبعد ثلاثة أسابيع، تزعزعت ثقة الجنوبين والبنادقة، فتشاوروا فيما بينهم، وقرروا الانسحاب بطريق البحر، حاملين معهم كل ما يستطيعون حمله مما يملكون.

قرروا ونفذوا القرار...

وعلم قلاوون بما حدث، وفطن إلى تضعضع الصفوف في داخل المدينة، فأصدر أمره بالهجوم عليها من جميع الجهات، في السادس والعشرين من شهر أبريل.

تدفق المقاتلون على المدينة من فوق الأسوار ومن خلال الثغرات التي أحدثوها فيها، وانتشروا في الشوارع والأزقة والحواري يقتلون ويخربون، عملاً بتقاليد الحرب المعمول بها في ذلك الزمان..

وارتفع الصراخ والعويل، ونشبت الحرائق في كل مكان، واندفع السكان يطلبون النجاة من الميناء، أو حبسوا أنفسهم في البيوت منتظرين فيها الموت أو الفرج بمعجزة!

دخل قلاوون المدينة مع رجاله، وأشرف بنفسه على تنفيذ خطة الهجوم وإدارة دفة المعركة، وكانت أوامره لجيشه صريحة واضحة: الرجال يقتلون، والمرضى والجرحى يعفى عنهم، والنساء والأطفال يحشدون في

أحياء المدينة، على أن يفتدوا بالمال فيما بعد، أو يساقوا إلى الأسر...

***

أمام مدرسة الطب، اقتحم موكب الملك المنصور رجل ضخم الجسم، عريض المنكبين، طويل اللحية؛ مسترسل الشعر، وهو يصيح: "السلطان!.. أعرضوا أمري على السلطان!.. لن يرفض السلطان لي طلباً!"..

وقبل أن يصل الرجل إليه، عرفه قلاوون. فأشار إلى رجاله بأن يفسحوا له طريقاً، وناداه باسمه: "تعال يا يعقوب!"

وقبل أن يفيق شهود هذا المنظر من دهشتهم، كان الغريب قد أمسك بإحدى يديه لجام الفرس، ووضع اليد الأخرى على ركبة السلطان وهو يقول:

- لقد حلت ساعة الوفاء بالعهد يا مولاي ... ويعقوب يطلب منك اليوم، في طرابلس، أن تمنحه المكافأة التي وعدته بها في حصن المرقب، منذ أربعة أعوام!

فقال السلطان:

– وما هي المكافأة التي تطلبها يا يعقوب؟

– العفو عن الذين تعهدت لهم، بالنيابة عنك، بأن لا يصيبهم أذى!

– أين هم؟

- في داخل هذا البناء، وفي الربع الممتد خلفه.

- عليهم الأماني جميعاً يا يعقوب .. وسيصحبك فريق من رجالي لإيصالهم حيث تريد ... لقد وفيت ديني نحوك!

- عافاك الله أيها المولى، وصانك وسدد خطاك!

* * *

كان على الملك المنصور قلاوون حقاً دين نحو ذلك الرجل ...

ففي سنة ١٢٨٥ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٨٤، خرج السلطان من مصر على رأس جيشه، في زحفه الموفق على الديار الشامية، لاستخلاص معاقل الصليبيين، وفي شهر مايو من تلك السنة، هاجم قلعة "المرقب" الواقعة في شمال طرابلس، واستولى عليها من جمعية فرسان القديس يوحنا. وتعامد معهم على أن يرحلوا آمنين إلى حيث يريدون، وأن يأخذوا خيولهم وأسلحتهم...

بعد ذلك النصر ببضعة أيام، أصيب قلاوون بإغماء متقطع، وارتفعت حرارته، حتى خشى رفاقه على حياته...

وكان بين الباقين في الحصن من رجاله المرضى، طبيب تخلف معهم للعناية بهم. فعلم بما حدث للسلطان، وتقدم طالباً أن يسمح له بمعالجته والعناية به...

تردد رفاق الملك المنصور في بادئ الأمر، وخافوا أن يكون الطبيب سيئ القصد، ولكن السلطان نفسه أمرهم بأن ينادوه، ولما مثل بين يديه، قال له:

– أنا لا أعرفك، ولا أنت تعرفني ... بل الظواهر تدل على أن بيني وبينك

عداء مقيماً!. فأنت من رجال هذا الحصن، وأنا العدو القادم من بعيد، الذي انتزع الحصن من أصحابه وأخرجهم منه ... فأية عاطفة هذه التي تجعلك تهتم بأمري وتحرص على سلامتي؟

فأجاب الطبيب:

- عاطفة المحبة أيها المولى .. الممزوجة بالصدق والاخلاص، والتي ينبغي أن يختلج بها صدر كل طبيب نحو كل عليل، أياً كان بلد الاثنين وأياً كان دينهما!

- ما اسمك ومن علمك الطب؟

- اسمي يعقوب الشمالي. وقد درست الطب على الرهبان والنساك في أديرة لبنان وصوامعه. وتلقنت معه أن رسالة الطبيب هي النجدة والمروءة.

– مارس إذن عاطفة المحبة التي أشرت إليها، وكن حريصاً على أداء رسالتك...

كان قلاوون مصاباً بتسمم. فأنقذ الطبيب حياته، بأن عالجه بدواء أعده بيده من الزيوت والاعشاب. وظل يلازمه بلا انقطاع حتى شفي تماماً وزال عنه كل خطر.

أراد أن يكافئه بالمال فرفض أن يأخذ شيئاً، وعلم منه أنه يقضي أيامه متنقلاً من مكان إلى مكان، يمارس مهنته بدون مقابل، ولا يرضى أجراً أكثر من القوت الضروري، والدعوات الطيبة!

وبعد أن اطمأن الطبيب على مريضه، طلب السماح له بالرحيل،

فأذن له قلاوون ولكنه ألح عليه بأن يفضي إليه برغبة ما، أياً كانت، لكي يحققها له..

فأجاب يعقوب:

- الايام أيها المولى، مليئة بالمفاجئات ... وقد يجئ منها يوم أتقدم فيه إليك بتلك الرغبة التي تلح على الآن بأن أفضى بها إليك!

- إن علي لك يا يعقوب إذن ديناً يحق لك أن تطالبني به في الوقت الذي تختاره ... وأتعهد لك من الآن بأن أقوم بالوفاء!

ومرت الأعوام ...

وكانت مفاجأة للسلطان، إذ أقبل عليه يعقوب الشمالي، أمام مدرسة الطب، وذكره بعهده؛ وطالبه بالوفاء!

وخرج من المدينة نحو مائة من الرجال والنساء والأطفال، الذين طلب لهم يعقوب العفو والامان!

وأمر قلاوون بتدمير المدينة القديمة، الممتدة على شاطئ البحر، وتشييد مدينة جديدة، عند سفح الجبل حيث تربض قلعة سنجل..

وفي المدينة الجديدة، أقام يعقوب الشمالي وذلك الفريق من السكان الذين أنقذهم من الموت أو الأسر أو التشريد.

ترك لهم السلطان قلاوون حرية تقرير مصيرهم والاختيار بين البقاء في مدينة طرابلس الجديدة، أو اللحاق بقومهم ... فاختاروا جميعاً البقاء..

قال الذين تحدثوا بالنيابة عنهم إلى الطبيب الشمالي:

- لقد ولدنا في هذا البلد، ونشأنا فيه، وفيه نريد أن نقضي بقية العمر، أما انتقال المدينة من يد إلى يد، وحلول حاكم فيها محل حاكم، فهو أمر إرادة الله، ولا مرد لإرادته!

حمل يعقوب الشمالي إلى السلطان قلاوون رغبة الجماعة، فأمر الملك المنصور بأن تقطع لهم أرض كافية لإقامتهم، وأن تشملهم في مستقبل الأيام حماية الحكام.

أما الطبيب، فقد أنشأ له السلطان داراً فسيحة، جعل الشمالي منها ملجأ للمرضى واليتامى والمعوزين، وأغدق عليها قلاوون المال قبل وفاته بعد سقوط طرابلس بسنة واحدة، وظل الطبيب يتلقى العون والمساعدة من خلفاء السلطان إلى أن وافاه أجله في سنة ١٣٢٠ ميلادية الموافقة لسنة ٧٢٠ للهجرة، في عهد الملك الناصر مُحَّد بن قلاوون.

وفي عهد هذا السلطان، سنة ١٣٠٣ للميلاد، الموافقة لسنة ٧٠٣ للهجرة، سقطت البقية الباقية من معاقل الإفرنج في سورية، وتم توحيد الديار الشامية والمصرية لمدة من الزمن!

كنوز الفرسان



قصص الكنوز كثيرة في تاريخ الحروب الصليبية. وهذه قصة منها!

القافلة تسير الهوينا، في طريقها من طرابلس إلى اللاذقية، تنوء ظهور بغالها وحميرها تحت الأحمال الثقيلة، المكونة من مصنوعات ثمينة، ومنتجات الأرض، وأسلحة وأدوات مختلفة، عهد بها التجار إلى زميلهم "فرج بن جابر" ليوصلها إلى عملائهم في شمال القطر السوري.

وحول القافلة، وفي مقدمتها مؤخرتها، سار فرج ومعه رفاقه يحرسون الركب ويسهرون على سلامته بعين حذرة يقظة، فالزمن يسوده القلق. وحالة الأمن مضطربة، والمسافرون معرضون في كل لحظة لمفاجآت غير سارة، تضطرهم للدفاع عن أنفسهم بالسلاح، وعن أموالهم بالأرواح!

كان ذلك في سنة ١٢٩٠ للميلاد، الموافقة لسنة ٦٨٩ للهجرة. والقلاع والحصون والمدن الباقية في حوزة الصليبيين الإفرنج تهاجم وتسقط في قبضة الجيوش المصرية والسورية موقعاً بعد موقع. ولم يبق منها غير القليل لم يتم استرجاعه بعد.

في السنة السابقة، سقطت مدينة طرابلس. وكانت مدينة اللاذقية قد سقطت قبلها بسنتين، في عهد الملك المنصور قلاوون، وواصل الحرب

بعده ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، وعهد إلى القائد المحنك علم الدين سنجر الشجاعي بتصفية ما تبقى للإفرنج من معاقل في البلاد السورية المتحدة في دولة واسعة الأرجاء مع البلاد المصرية.

كان "فرسان الهيكل" الصليبيون يحتفظون بقلعة "عتليت" بفلسطين، وميناء "صيدا" بلبنان، وبلدة "طرطوس" الحصينة على الساحل السوري بين طرابلس واللاذقية.

فطرطوس تقع إذن على الطريق الذي تسلكه قافلة التجار بقيادة فرج بن جابر. ولابد من الاحتراس لأن الفرسان يخرجون منها في حملات منظمة للغزو والسطو. وهم في هذا المضمار ذوو خبرة واسعة وجرأة وشجاعة متناهية.

لهذا، لما أصبحت القافلة على مسافة قريبة من طرطوس، أمر فرج ابن جابر رجاله بأن ينحرفوا بها عن الشاطئ، ويسلكوا دروباً ضيقة تخترق النجاد المحيطة بها، بين الأشجار والصخور.

لكن هذه الحيطة لم تنقذ القافلة مما كان فرج يخشاه عليها، فقد فاجأها جماعة من فرسان الهيكل المدججين بالسلاح، واستولوا على الأحمال والبغال والحمير، وقاوم فرج ورجاله مقاومة شديدة، واستبسلوا في الدفاع، ولكنهم غلبوا على أمرهم فقتل معظمهم، ونجا بعض الخدم بأنفسهم ففروا على خيولهم إلى الجبال ووقع فرج بن جابر وثلاثة من التجار أسرى في قبضة الفرسان الذين ساقوهم إلى طرطوس وزجوا بهم في سجون قلعتها المظلمة.

***

في تلك القلعة، كان فرسان الهيكل يحتفظون بكنوزهم الكثيرة من مال وجواهر وحلى وآنية ثمينة وأسلحة وغير ذلك من أسلاب الحروب وكان الأمين على تلك الكنوز وحارسها في مخبئها صديقاً لفرج بن جابر عرفه في طرابلس حيث كان يقيم من قبل، وحيث تزوج الرجلان فتاتين صديقتين.

تزوج ابن جابر الفتاة "صافية بنت عمار" وهي من سلالة أمراء بني عمار الذين حكموا طرابلس قبل أن يستولي عليها الصليبيون.

تزوج صديقه "جوليان كالا" الفرنسي، الفتاة "ايما" رفيقة صافية منذ سن الطفولة، وهي مولودة في طرابلس من أب أسباني.

ربطت بين الأسرتين أواصر الألفة والمحبة. وعاشتا جارتين في صفاء وهناء. ولما استرجع علم الدين سنجر الشجاعي المدينة الزاهرة وخرج منها أصحابها الإفرنج، أبى جوليان أن يبقى فيها، ورحل عنها مع زوجته "ايما" والتحق بفرسان الهيكل الذين كانت له عندهم مكانة خاصة، فعهدوا إليه بحراسة كنوزهم في قلعة طرطوس.

لم يمكث فرج بن جابر في سجنه أكثر من أسبوع، فقد علم جوليان بأمره، وتشاور مع زوجته فيما يجب عليهما أن يصنعا، وقررا أن الوفاء يقضي عليهما بأنفاذ الرجل الذي كان لهما جاراً وصديقاً.

فوجئ فرج بدخول جوليان عليه في سجنه، وكان يجهل أنه يقيم في القلعة، وأطلعه الرجل على الخطة التي رسمها مع زوجته لإنقاذه من الأسر مع رفاقه. فشكره فرج على مروءته ووفائه! وكان جواب جوليان على هذا الشكر قوله لصديقه:

- لو كنت مكلفاً بحراستك أنت، هنا، لما أقدمت على ما أنا فاعله.

ولكنني مكلف بحراسة الكنوز فقط، لا بحراسة الأسرى والمسجونين.

فليس إذن في مساعدتك على الهرب ما يتنافى مع المهمة الملقاة على عاتقي، ومن ثم ليس فيها ما يعد خيانة للأمانة...

وتعانق الصديقان..

وفي ليلة حالكة السواد، تسلل فرج بن جابر ورفاقه الثلاثة من القلعة، واجتازوا أزقة البلدة متنكرين، ودليلهم جوليان كالا حارس الكنوز. وعند الأسوار، كانت ايما في انتظارهم ومعها أربعة جياد محملة بالزاد، ومن سرج كل منها يتدلى سيف في غمده، وقوس وجعبة مليئة بالسهام.

قال فرج: "الوداع!"

فأجاب جوليان: "إلى اللقاء!.. فإن نفسي تحدثني بأن هذا الموقع الحصين لن يبقى طويلاً في حوزة الفرسان. وقد تجيء أنت يا فرج، مرة أخرى، إلى هنا، لا أسير بل كفاتح منتصر!"

وفي الطريق الذي سلكته القافلة قادمة إلى طرطوس. انطلق الرفاق الأربعة، عائدين إلى طرابلس..

* * *

كان خبر السطو على القافلة قد بلغ مسامع السكان والحكام في طرابلس، فقلقت صافية بنت عمار على مصير زوجها، وباتت ترقب الأخبار مضطربة تنتابها الهواجس. وإذا بها تفاجأ ذات صباح بعودة فرج

ورفاقه الثلاثة سالمين. فقص الرجل على الناس ما حدث له، وكيف أن صديقه جوليان كالا -وكلهم يعرفونه- أنقذه من الأسر وسهل له سبيل الهرب. وروي لحكام المدينة ما رآه في داخل القلعة، ووصف لهم الكنوز التي يحتفظ بها الفرسان في مخابئ تحت الأرض، في حراسة جوليان الذي فتح له أبواب المخابئ وأطلعه على ما تحويه الصناديق المصفحة بالحديد من ثروة هائلة.

وكانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق، في كل مكان، لمواصلة الهجوم على المواقع الباقية في قبضة الإفرنج، وكانت سنة ١٢٩١ للميلاد الموافقة لسنة ٦٩٠ هجرية، السنة الفاصلة في ذلك الصراع الرهيب الذي دام أكثر من مائة سنة، بين المسلمين والصليبيين في الشرق العربي.

في تلك السنة، سقطت مدينة عكاء بفلسطين، ومدينة عتليت على مقربة منها، ومدينة صيدا بلبنان، ولم يبق في النهاية غير طرطوس في الشمال!.

فصدر الأمر من الملك الأشرف خليل، في صيف سنة ١٢٩١، بمهاجمة المدينة وانتزاعها من فرسان الهيكل بالقوة، إذا رفضوا تسليمها بدون قتال.

أعد القايد علم الدين سنجر الشجاعى عدته لتنفيذ الأمر الذي تلقاه من السلطان بالقاهرة. وطلب النجدة من الأمراء والأقيال في سورية، فلبوا نداءه، وكانت طرابلس في مقدمة الملبين.

تطوع فرج بن جابر للقتال وفعل مثله الرفاق الثلاثة الذين نجوا معه من الأسر بعد حادث القافلة في العام السابق. واعتبر الأربعة أن لهم على

فرسان الهيكل ثأراً لابد من أخذه.

طوق علم الدين المدينة المنيعة بقواته، وضيق عليها الخناق، ووجه إلى الفرسان انذاراً بالتسليم، حقناً للدماء.

خيرهم بين أن يحكموا السلاح بينهم وبينه، أو أن ينسحبوا من المدينة، ويخلوا أسوارها وحصوئها، ويرحلوا بطريق البحر إلى حيث يشاءون، فيحمل كل منهم معه سلاحه وماله الخاص، وأعطاهم الأمان على حياتهم، ولكنه اشترط عليهم أن يتركوا معدات الدفاع حيث هي، ويتخلوا عن كنوزهم المكدسة في دهاليز القلعة.

وجاءه الرد على انذاره قبل نهاية الموعد الذي حدده .. "جمعية فرسان الهيكل تقبل الشروط التي ذكرها القائد علم الدين الشجاعى لتسليم مدينة طرطوس".

وفي الوقت الذي فتحت فيه أبواب الأسوار وبدأت قوات المحاصرين تجتازها وتنتشر في الحارات والأزقة متجهة إلى الأبراج والقلعة، كانت السفن الخفيفة والزوارق الواسعة، تخرج من المرفأ ناشرة قلاعها، أو مدفوعة بقوة المجاديف، تحمل أسر الفرسان ورجالها، ووجهتها جزيرة أرواد القريبة من الساحل..

وتسلم الجيش الفاتح الأسوار والأبراج والقلعة ومحتوياتها جميعاً ولم يلجأ أحد من الجانبين إلى استخدام السلاح. ولكنه اتضح للفاتحين بعد رحيل الفرسان، وبعد أن فتحوا الصناديق المخبأة في أقبية القلعة أن هذه الصناديق خالية من الكنوز!

لم يكن في الميناء غير بضعة مراكب صغيرة وزوارق الصيد، فاستقلها فريق من المتطوعين وانطلقوا بها على اليم يطاردون الهاربين. وصدرت إليهم الأوامر بألا يعتدوا على أحد، ولا يمنعوا أحداً من مواصلة السير إلى أرواد، وأن يكتفوا بالاستيلاء على الكنوز إذا عثروا عليها في إحدى السفن.

وكان فرج بن جابر بين المطاردين!

بحث في القلعة عن صديقه جوليان وعن زوجته فلم يجدهما.

وعلم أنهما رحلا مع من رحل. وأيقن أن صديقة لابد أن يكون قد اتخذ التدابير اللازمة لتهريب الكنوز، قبل دخول الجيش إلى المدينة.

لم يخطئ ظنه: فقد لحق المطاردون بفريق من الهاربين، وشاهد فرج صديقه الإفرنجي في مركب شراعي يتقدم ببطء، فاتجه إليه بزورقه، وأدرك جوليان أن محاولته لإنقاذ الكنوز قد فشلت. فأمر الرجال الذين معه بأن يلقوا حمولة المركب في البحر.

وأمام أنظار فرج بن جابر ورجاله، تساقطت الكنوز قطعة بعد أخرى فابتلعتها المياه. ولما أصبح فرج على متناول الصوت من صديقه، صاح جوليان قائلاً:

- يا فرج!.. في طرطوس أنقذتك من الأسر عملاً بواجب الوفاء ولم أكن حارساً عليك، أما الآن، فأنني أقوم بواجب الوفاء، تجاه فرسان الهيكل، لأنني كنت الحارس المؤتمن على كنوزهم. فلن أدعها تصل الى أيديكم!

ولما انتهى رجاله من تنفيذ أمره، توجه جوليان إلى مؤخرة المركب وخاطب صديقه مرة أخري قائلاً:

- في هذه المرة، الوداع!.. فلا لقاء بيننا بعد اليوم!

وقفز إلى البحر فطوته الأمواج!

***

تبعثرت الكنوز وتفرقت..

فقد استولى الفاتحون على بعضها، وهو ما تركه جوليان في صناديق القلعة...

وتمكن الفرسان من أخذ جزء آخر توصلوا به إلى رواد حيث استقروا بضعة أعوام....

أما الجزء الثالث، وهو الأهم، فقد أغرقه حارسه وأغرق نفسه معه!

أما فرج بن جابر، فقد أسف على ما بدر من صديقه، وعلى انتحاره غرقاً على تلك الصورة المثيرة. فعرض على زوجته ايما أن تعود معه إلى طرابلس، لتعيش معززة مكرمة، تحت سقف بيته، وفي رفقة زوجته؛ صديقتها صافية.

ووافقت المرأة على ما اقترحه عليها صديق زوجها، وزوج صديقتها.

فانتقلت في عرض البحر من المركب الذي انتحر منه جوليان، إلى الزورق الذي يقوده فرج..

وفي طرابلس، عاش الثلاثة في جو من التفاهم والمحبة والوفاء، وظلوا يذكرون الراحل العزيز، ويترحمون عليه، ويقرون أنه استمع إلى صوت الواجب مرتين: "يوم أنقذ صديقه من الأسر، يوم أراد أن ينقذ الكنوز التي كانت أمانة في عنقه.

المعقل الأخير

بفضل الوحدة بين سورية ومصر، هزم جيشهما المشترك جحافل المغول، وحرر الجيوب الإفرنجية الباقية من الغزو الصليبي، وآخرها جزيرة "أرواد" فاستوطنتها أسر مصرية شامية منذ قرون وهذه قصتها..

سكان مدينة طرطوس على الساحل السوري، في غمرة صاخبة من الفرح والمرح.. أهازيج الرجال وزغاريد النساء تملأ الفضاء. النيران موقدة على سطوح المنازل وفوق صخور الشاطئ، تحدياً للعدو الرابض في معقله البحري تجاه المدينة، وانذاراً له بأن ساعته الأخيرة قد دنت:

هناك، في جزيرة ارواد الصغيرة المنيعة، على مرأى العين منهم، وعلى مسافة فرسخ أو أقل من مدينتهم، يعتصم بضعة آلاف من فرسان جمعية الهيكل الصليبيين، الأقوياء الأشداء الشجعان، الذين نازلهم في الميادين فرسان سوريون ومصريون أقوياء أشداء شجعان مثلهم، فتغلبوا عليهم، وأقصوهم عن معاقل أخرى كانت في حوزتهم على الساحل وفي سفوح الجبال، فانتقلت فلولهم إلى ذلك المعقل الأخير، إلى الجزيرة الصخرية، حيث كدسوا أموالهم وكنوزهم في سراديبها العميقة، واستعدوا للدفاع عنها في الأبراج والأسوار المحيطة بها، فجعلوا من كل حجر قلعة، ومن كل فجوة

مكمنا، وطوقوا الجزيرة بسلاسل حديدية غليظة، وأعدوا أسراباً من المراكب والزوارق الخفيفة تصلح للقتال، وتصلح للصيد، وتصلح للفرار إذا ما دارت الدائرة على المدافعين..!

البيوت متراصة متلاصقة، ومخازن الأسلحة والبارود محفورة في الصخر، والماء العذب يتفجر من عين غزيرة في قاع البحر، ويستخرج منها بجهاز معقد من صنع الفينيقيين في سالف العصور، وقد توافد الغزاة على الجزيرة العجيبة فأحتلها الفراعنة، والإغريق والرومان، والبطالسة، والبيزنطيون، وأخذها معاوية بن أبي سفيان فأصبحت عربية!

ولما طغت على سوريا الموجة الصليبية الأولى، في القرن الحادي عشر للميلاد، الموافق للقرن الخامس للهجرة نزل فرسان الهيكل في الجزيرة وأعادوا أرواد إلى ما كانت عليه من قوة ومناعة.

ومرت الأعوام بالعشرات، وتلاحقت الموجات الصليبية وقابلتها موجات عربية فخسر الإفرنج معاقلهم الأولى على يد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وانتزع منهم السلاطين المماليك معاقلهم الأخيرة، يوم وحدوا القطرين المصري والسوري في أواخر القرن الميلادي الثالث عشر، والهجري السابع.

وفي سيئة ١٢٩١ للميلاد، الموافقة سنة ٦٩١ هجرية، سقطت المدن الساحلية الواحدة بعد الأخرى: عكا، حيفا، صور، صيدا، بيروت وأخيراً طرطوس في الشمال. وسقطت في آن واحد مدن أخرى في داخل البلاد. وانسحب الإفرنج إلى قبرس، وقبع فرسان الهيكل في أرواد وبقي في سورية

فريق من الجنود المصريين الذين أصيبوا في المعارك المتوالية، ورأى الملك الأشرف صلاح الدين خليل، الذي قاد الجيش السوري المصري في تلك الحملة الموفقة، أن يقيم أولئك الجنود جميعهم في مكان واحد، فاختاروا مدينة طرطوس، حيث ضمن لهم السلطان ما يكفيهم من مرتبات وجرايات. فاستقروا في موطنهم الجديد ولحق بهم من مصر أهل وأقارب، وتزوج كثيرون منهم فتيات سوريات، فتكونت من تلك المجموعة نحو مائة أسرة عصرية سورية، عاشت في سلام واطمئنان، وفي وئام تام مع سكان المدينة الأصليين.

واختار أولئك المصريون النازحون عن وطنهم بوادي النيل إلى شطره الشمالي بسورية، واحداً منهم، أطلقوا عليه لقب "شيخ البلد" وعهدوا إليه بأن يسهر على مصالحهم، ويعني بأمورهم، ويحل مشكلاتهم، ويقضي في خلافاتهم، لكي تبقى أواصر الألفة والمحبة قائمة بينهم، وكان الرجل الذي اختاروه لهذه المهمة جندياً خاض عشرات المعارك، وفقد فيها ذراعيه، ورحل إلى طرطوس مع ابنه الوحيد.

وكان اسمه "محمود عبد العاطي" فسماه الطرطوسيون "محمود المصري" وتزوج ابنه "حامد المصري" والفتاة السورية "خولة" بنت "إبراهيم البدري" من أثرياء حماة، له في طرطوس أرض ومتاجر.

ومنذ ذلك الوقت، كثر في تلك الجهات اطلاق لقب "المصري" على الجنود الذين استوطنوا سورية.

وما كادت الدولة المصرية السورية المتحدة تطمئن على كيانها من

ناحية الغرب، بالقضاء على الجيوب الإفرنجية على طول الساحل السوري حتى فوجئت بخطر داهم جاء من الشرق: ذلك هو الغزو المغولي الرهيب الذى تجسم في جيش جرار يبلغ عدده مئات الآلاف من الفرسان، يقوده الملك غازان خان بنفسه، يقتل ويحرق ويخرب ويسلب.

خطر يفوق الخطر الصليبي الذي تخلصت سورية منه بفضل اتحادها مع مصر، والذي أدرك المسئولون عن كيان الدولة وسلامة الشعبين، أن دفعه عن البلاد لن يكون مضموناً إلا بصيانة الاتحاد، وبمواجهة العدو صفاً واحداً، وبجيش واحد!

وصل المغول إلى مشارف سورية، ثم توغلوا في شمالها، ولحق بهم ملوك أرمينيا وبلاد الكرج، وانضم إليهم فرسان الهيكل بقيادة رئيسهم جاك دي مولى، طلباً للثأر، وعلى أمل أن يسترجعوا بعض ما انتزع منهم العرب من معاقل.

في هذه المرة، زحف من مصر لملاقاة العدو السلطان الشاب مُحَمَّد أبي قلاوون الملقب بالملك الناصري، ووافاه المتطوعون من كل فج وصوب.

ولكن الحظ خانه في الجولة الأولى، فهزم في معركة حمص، سنة ١٣٠٠ للميلاد، الموافقة لسنة ٧٠٠ هجرية. فاضطر إلى الارتداد لإعادة تنظيم الصفوف، والاستعداد للجولة التالية.

وفي معركة حمص التي اشترك فيها فريق من سكان طرطوس السوريين والمصريين، أصيب حامد المصري بجراح بليغة اقتضت بتر دراعيه، فأصبح مثل أبيه محمود المصري، بدون ذراعين، ولكنه تمكن في حومة القتال من

تسديد طعنة صائبة إلى غريمة، وهو من فرسان الهيكل المشهورين بشدة البأس، فأصابه في فخذه إصابة سببت له عاهة مستديمة، عرف ذلك الفارس بسببها، منذ ذلك الوقت، باسم "لويس أبو رجل قصيرة" وأقسم حامد ورفاقه على أن يثأروا لأنفسهم ولوطنهم..

وواصل غازان خان الزحف على دمشق، فصدد السكان عنها.

ودارت في البلاد معارك متواصلة، فانتقل الحظ من صف إلي صف، إلى أن أزفت الساعة التي حددها الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون لتوجيه الضربة القاضية إلى العدو الغريب...

وفي سنة ١٣٠٣ للميلاد، الموافقة لسنة ٧٠٣ هجرية، وقعت معركة "مرج الصفر" على مقربة من دمشق، فهزم العرب جيوش المغول مجتمعة، ومزقوا شملها، وقتلوا عشرات الألوف وساقوا أمامهم الأسرى، واستولوا على كنوز غازان الذي فر من الميدان لا يلوي على شيء.

لم يشترك أهل طرطوس في تلك المعركة، ولكنهم أقاموا الأفراح يوم بلغهم خبرها، وهو الخبر الذي من أجله أطلق رجالهم الأهازيج، وأطلقت نساؤهم الزغاريد، وراحوا يوقدون النيران على سطح المنازل وفوق صخور الشاطئ، ويتحدون العدو الرابط في معقله البحري تجاه المدينة، في جزيرة أرواد!

وكان السلطان، كلما ألحوا عليه بأن يوافيهم بالجنود والسفن، لغزو الجزيرة العاصية، يرد عليهم بأن خطر المغول يجب أن يدفع أولاً، ثم ينظر في مصير أرواد والمعتصمين فيها من فرسان الهيكل؟

وبعد ما هزم المغول، وتشتت شمل جيوشهم، وهرب منهم عائداً من

حيث أتى، وسبقه في الهرب ملوك أرمينيا وبلاد الكرج، عاد الفرسان الصليبيون إلى معقلهم الأخير في جزيرتهم الحصينة تجاه طرطوس.

عند ذلك قام وفد من المدينة، على رأسه حامد المصري وزوجته خولة، قاصداً إلى دمشق، لتهنئة الملك الناصر على نصره الباهر، والعودة إلى الإلحاح مرة أخرى، لحمله على مهاجمة الجزيرة، إجابة لرغبة السكان المتشوقين إلى منازلة الفرسان في عقر دارهم...

وكان السلطان قد أعد العدة للعمل الحاسم، قبل أن يصل الوفد إلى دمشق.

فقال للطرطوسيين القادمين إليه:

- ما نسيت يوماً واحداً ما تطلبونه مني، فإن أمنيتكم هي أمنيتي، وأرواد هي الشركة الأخيرة في جسم البلاد الشامية، ولابد من اقتلاعها الآن.

ومشي الملك الناصر بنفسه على رأس الحملة.

ومن ميناء طرطوس، انطلقت مجموعة من السفن، حاملة بضعة آلاف من الرماة، وحملة الفؤوس؛ ومعدات الحصار على أنواعها وشقت سبيلها في اليم على قرع الطبول، تتصاعد منها أناشيد الحرب، ممزوجة بأهازيج الطرطوسيين وزغاريد نسائهم!

لم يفاجأ فرسان الهيكل بهذا الهجوم العربي، فقد كانوا ينتظرونه بين عشية وصباح، ويراقبون الشاطئ من فوق أسوارهم وأبراجهم.

ويعدون العدة للدفاع عن الرقعة الأخيرة الباقية لهم من الدولة الصليبية الكبيرة.

كان الصراع عنيفاً، والقتال مريراً.

فقد اضطر العرب إلى ضرب الحصار على الجزيرة من البحر يومين متواليين وحطموا السلاسل الحديدية، وتسلقوا الأسوار والأبراج؛ وتمكنوا من فتح ثغرات فيها تدفقوا منها إلى داخل البلدة، حيث استمر القتال يوماً كاملاً، في الحواري والأزقة، في حجرات البيوت وعلى سطوحها، في السراديب المظلمة وبين الصخور وعلى صفحة الماء!

كان كل واحد من سكان طرطوس، المصريين والسوريين، الذين رافقوا الحملة وساهموا في القتال، يبحث عن عدو يعرفه، أو غريم يطلب الثأر منه، أو بطل سمع عنه في الحروب السابقة، لكي ينازله في ذلك اليوم الرهيب، الذي اختتمت به الحروب الصليبية في الديار الشامية.

ولم يتخلف محمود المصري وابنه حامد عن اللحاق برفاقهما، فكانا يستنهضان الهمم بصوتهما الجهوري، ويستعينان بصيحات الحرب عن الذراعين المفقودتين!

وكانت جولة بنت إبراهيم البدري تمشي معهما جنباً إلى جنب، وفي يدها سيف مسلول!

وعلى باب القلعة الوسطى، حيث تجمع فريق من نخبة فرسان الهيكل، علي صدروهم الدروع وعلى رءوسهم الخوذات، وفي أيديهم أسلحتهم

الثقيلة، تكدست الجثث، وتضاعف الصياح، وارتفعت أنات الجرحى الذين داسهم المقاتلون بالأقدام!

وفجأة، انطلقت كلمة واحدة من فم محمود وابنه حامد: "أبو رجل قصيرة!"

ووثبت خولة على الرجل الذي أفقد زوجها ذراعيه، والذي كان يسند ظهره إلى السور، ويواجه بسيفه المهاجمين..

والتحمت المرأة مع الفارس الإفرنجي في مبارزة ما كان أحد الناظرين يشك في أن الغلبة فيها للرجل، لا للزوجة الساعية إلى الثأر لزوجها، فأسرع إليها بعض رفاقها ليشدوا أزرها. ولكنها صاحت فيهم قائلة:

- دعوني معه وجهاً لوجه!.. فليست هذه ذراع خولة! بل ذراع حامد تقتص من الغريم!

وحدث ما لم يكن أحد يتوقع حدوثه!

ما كاد لويس يصحو من دهشته، حتى كان سيف خولة، الزوجة الغاضبة، يخترق صدره لينفذ من ظهره، فيلتوي طرفه على الصخر!

واندفع المهاجمون إلى داخل القلعة، وما غابت الشمس، حتى كان النصر قد أصبح تاماً كاملاً.

قتل في المعركة أكثر من ألفين من فرسان الهيكل، وهرب فريق منهم بطريق البحر إلى جزيرة قبرس، حاملين معهم بعض تحفهم وكنوزهم وأموالهم، وسلم الباقون، فأخذ العرب في ذلك اليوم خمسمائة أسير نقلوهم إلى طرطوس، وافتدوا بهم فيما بعد مثل عددهم من الأسرى العرب في قبرس.

وتم للملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون، وهو في مطلع العشرين من العمر القضاء على آخر جيب من الجيوب الإفرنجية في سورية..

وذاق البلدان، مصر وسورية، في ظل الوحدة الوثيقة، طعم الراحة والاطمئنان مدة طويلة، فقد حرر جيشهم المشترك، الديار الشامية من الإفرنج الذين وفدوا من الغرب، ومن المغول الذين وفدوا من الشرق.

وانتقل إلى جزيرة أرواد كل من أراد الانتقال إليها من سكان طرطوس. وكان أول من استوطنها منهم، محمود المصري، وابنه حامد وزوجته خولة، وأبوها إبراهيم البدري، وأسر مصرية شامية أخرى وهي التي تحول أفرادها، مع الزمن إلى بحارة وصيادين. ومن سلالة أولئك الأجداد، بحارة أرواد اليوم وصيادوها!

غزوة قبرس



تحدي الملك السلطان، فقبل السلطان التحدي
وأسر الملك وأذله حتى افتداه ذووه بالمال

– القرصان! القرصان!..

دوت أصوات الاستغاثة في الليل البهيم، وانطلقت الزوارق تنقل الرجال بين البر والسفن الراسية في ثغر الاسكندرية، ولمعت نصال السيوف في الظلام على ضوء المشاعل وراح كل من طرقت أذنيه صيحات المستغيثين يلبي النداء وينضم إلى المدافعين، وقد حمل ما وصلت إليه يده من أدوات القتال!

لم تكن المرة الأولى التي هاجم فيها قراصنة الإفرنج سواحل مصر وثغورها. فقد جرأتهم استكانة الحكام وقعودهم عن مقابلة الهجوم بمثله، وأعمالهم في حراسة منافذ الدولة، على مواصلة الاعتداء، مما جعلهم يعتقدون أن أرض مصر وأهلها وأموالها لقمة سائغة ونهب مباح!

وكان هجومهم على ميناء الإسكندرية، في تلك الليلة من ليالي الشتاء الباردة المظلمة –سنة ٨٢٧ للهجرة. الموافقة سنة ١٤٢٤ للميلاد– بالغاً مبلغاً عظيماً من القسوة والاستهتار. فقد أضرموا النار في السفن

والزوارق، وأمعنوا في القتل والضرب والسلب، وعادوا على أعقابهم يجرون وراءهم إحدى سفن السلطان محملة بالغنائم!

عبثاً حاول بحارة السفينة ومن انضم إليهم من السكان دفع الأذى وطرد المهاجمين، وعبثا رفعت "أمينة" بنت علاء الدين صرتها في حث المدافعين على الاستبسال في القتال، وعبثا انتزعت الفتاة من أحد البحارة سيفه الملطخ بالدم، ووثبت إلى المقدمة تضرب المثل الصالح في الشجاعة والأقدام. فقد غلب المصريون على أمرهم، وكانت أمينة بين السبايا، عند ما ابتعد القراصنة عن الثغر فائزين غانمين!

وجرح أبوها "علاء الدين العنتابي" في القتال. وكان من المماليك، عهد إليه الملك "الأشرف سيف الدين برسباي" –الجالس على عرش مصر منذ عام ٨٢٥ للهجرة الموافق لعام ١٤٢٢ للميلاد– في الأشراف على تسليح الموانئ فشاءت الأقدار أن يكون في الإسكندرية ليلة باعتها القراصنة بهجومهم، وأن تكون ابنته ووحيدته أمينة معه في رحلته. فاشتركت معه في الدفاع حتى جرح، فوقع ووقعت معه الفتاة في الأسر..

ثار ثائر الملك الأشرف برسباي عندما بلغه خبر الاعتداء واستيلاء القراصنة على تلك السفينة بمن فيها من قواد وبحارة. فعزم على ضربهم ضربة قاضية، وعول على مهاجمتهم بدوره في المعاقل التي يلجؤون إليها ويعتصمون فيها، وكانت جزيرة قبرس أقرب معقل لهم وكانت أسرة "لوسينيان" المالكة تحميهم وتمدهم بالمال والمراكب والأسلحة والذخائر وكان الملك الجالس على عرش قبرس يدعى "جانوس –أو يوحنا– دي

لوسينيان" من سلالة ملوك الصليبيين الفرنسيين، الذين انكمشوا في تلك الجزيرة بعد أن ضاع ملكهم في سورية والأرض المقدسة، فقرر الملك الأشرف أن يغزوها ليقضي على آخر مملكة أفرنجية في الشرق انتقاماً لنفسه ولرعاياه، وجهز ثلاثة أساطيل سارت إلى الجزيرة في ثلاث حملات بحرية، خرجت فيها المراكب المثقلة بالجنود ومعدات القتال من ثغور مصر وسورية ولبنان، وكانت آخر حيلة بقيادة السلطان نفسه في شهر رمضان سنة ٨٢٩ للهجرة، الموافقة لسنة ١٤٢٦ للميلاد.

أحدقت المراكب المصرية بثغور قبرس واحد بعد واحد، فأحرقت فيها كل ما كان قابلاً للالتهاب ونزل جنود برسباي إلى البر في كل ثغر تحميه قلعة أو تكتنفه أسوار، فهدموا الأسوار واقتحموا القلاع!

وحدث في حصن "ليماسول" حادث يقرب من المعجزة! فقد فتحت أبواب الحصن فجأة وقبل أن يبدأ الجيش المحاصر بالهجوم، بقيادة الضابط "خير الدين السروجي".. فاندفع الجنود المصريون إلى داخل الحصن، وإذا بهم في ساحة واسعة لا جند فيها ولا سلاح يبدو في أرجائها، وإذا بالأبواب تقفل من جديد، فيصبح المهاجمون محصورين في تلك الساحة كالفئران في مصيدة!

كانت خدعة عمد إليها المدافعون عن الحصين فنجحت. وشعر قائد المصريين بأن جيشه هالك لا محالة وانطلقت السهام من فوق الأسوار تنهمر على رجاله كالمطر، وسيول من الزيت الملتهب تتدفق عليهم من النوافذ، وكتل من الصوف المشتعل تلقى على رؤوسهم، وهم عاجزون عن

تجنب تلك القذائف والاحتماء منها، فساد الهرج والمرج، ودب الذعر بين الرجال. وأوشك قائدهم أن يأمرهم برفع الأيدي وطلب التسليم. ولكن صوتاً سماوياً عذباً ارتفع في ركن من أركان الساحة بين صيحات الجنود المنكرة:

- من هنا، من هنا، يا رجال خير الدين! لقد وقع الأعداء في الفخ الذي نصبوه لكم!

وصحبت الصوت السماوي العذب قعقة سلاسل، وإذا بأحد الأبواب الحديدية المؤدية إلى قاعات الحصن الداخلية يفتح على مصراعيه، وتبدو منه فتاة خيل لجنود برسباي أنها حورية نفرت من جنان الخلد إلى ذلك الحصن المظلم، لإنقاذهم في ساعة الشدة واليأس! تلك هي "أمينة" بنت علاء الدين، كان القبارسة قد احتفظوا بها سجينة مع أبيها ورفاقه في حصن ليماسول، على أمل أن يفتديهم الملك الأشرف بالمال. فمات الأب متأثراً بجراحه وباتت الفتاة ترقب ساعة الفرج، إلى أن وقع ما وقع، فتمكنت من مغافلة الحراس أثناء القتال، مع خمسة من الأسرى المصريين، عاونوها على فتح ذلك الباب فاندفع خير الدين ورجاله إلى أنحاء الحصن، وتم لهم الاستيلاء عليه، والقضاء على حاميته، وانقاذ المصريين المسجونين فيه!

وكان الملك الأشرف، في خلال ذلك الحادث الرائع، يقتحم قصر الملك جانوس دي لوسينيان، ويأخذه أسيراً مع حاشيته وأركان حربه، ثم عاد بأساطيله إلى مقر تنوء بأحمالها، وتتبعها البقية الباقية من مراكب قبرس، وفيها الأسلاب التي لا تحصى ولا تعد!

واستقبلت مصر ملكها الفاتح وجيشه المظفر بمظاهر الترحيب والفرح، وأقيمت حفلة عرض عسكري في "قلعة الجبل" بالقاهرة ذهب إليها الملك الأشرف أبو السعادات سيف الدين برسباي الغازي، ممتطبا جواداً مطهما يتمايل في حلة مزينة بالذهب والفضة، وخلفه الملك القبرسى الأسير مربوطاً بالحبال على ظهر بغلة حمراء، وقافلة لا نهاية لها من الجمال المصرية والحمير القبرسية تحمل الغنائم ويقودها رعاية الملك أذلاء في الأغلال يرسفون!

وكان ذلك اليوم من أيام مصر المشهودة في التاريخ!

***

قال الملك الأشرف:

- لقد أبليت يا أمينة في القتال أحسن بلاء، وطوقت عنق الجيش. بجميل لن ينساه لك أبو السادات برسباي. وأنت من الآن فصاعداً من نزيلات قصرى، تحلين فيه معززة مكرمة، تأمرين فلا يرد لك أمر، وترغبين فلا يحول دون تحقيق رغبتك حائل!

فأجابت بنت علاء الدين العنتابي:

ان أعز أمنية عند أمينة يا سيد الأمصار وفاتح الأقطار، أن تظل السعادة مخيمة على مصر في ظل أبي السعادات!

والتفت برسباي إلى خير الدين السروجي، قائد الجيش المنتصر في ليماسول، وقال:

– وأنت خير الدين، ستكون من الآن رئيس الحرس في القصر، وقائد الفرسان في حومة الوغي، إذا ما اضطرتنا الظروف إلى خوض غماره في مستقبل الأيام. وإذا كانت لك أمنيه فافصح عنها، لكي نحققها لك بإذن الله!

فأجاب خير الدين:

– أن أمنيتي أيها الملك هي أمنية هذه الفتاة الشجاعة، التي لولاها لما انتصر خير الدين في ذلك الحصن القبرسي المنيع .. ولكن الذي لم تقله لك أمينة، يا مولاي، هو أن لنا –نحن الاثنين– رغبة أخرى، ما دمنا سنعيش في هذا القصر العامر!

فقاطعه برسباي قائلاً:

– لقد أدركت الرغبة التي تخالج صدريكما يا بني: لقد أصبحت أمينة يتيمة بعد موت أبيها، فكن لها زوجاً، وليكن الهناء رفيق حياتيكما! أليست هذه هي الرغبة التي أخفتها أمينة عني؟

فاندفع الشاب والفتاة نحو السلطان، وتناول كل منهما إحدى يديه وغمراها بالقبلات!

***

ظل الملك جانوس دي لوسينيان أسيراً في قلعة الجبل بضعة شهور، إلى أن تقدم تجار البندقية فأنقذوه من الأسر مقابل فدية دفعوها للملك الأشرف، بلغت مائتي ألف دينار!

بعد أن أقام الملك المعتوق أسابيع في ضيافة غامره، وقع على وثيقه اعترف فيها بسيادة مصر على الجزيرة التي ظل ملوكها يدفعون الجزية لمصر حتى نهاية حكم المماليك.

نساء في المعركة

تولت امرأتان قيادة رفيقاهما عند كل من الطرفين المتحاربين وفاجأت كل منهما أولئك الرفيقات بما لم يخطر لهن ببال!

في حجرة ضيقة، مجاورة لحجرة الحرس، عند مدخل الحصن القديم المتداعى، الذي تحول بأمر الحاكم الى مربط للخيل ومخازن للعلف، جلس عشرون أو أكثر من الأسرى يتناولون طعام العشاء المكون من الخبز الجاف والزيتون. وكانوا يعلمون أنهم في الغد القريب لن يذوقوا الزيتون وقد لا يذوقون الخبز. فالمؤن قد شحت في الجزيرة المحاصرة، كما شح فيها البارود وتحطم الكثير من أدوات القتال. والأسرى لا يقلقون لهذا ولا يحزنون، بل كانوا يرجون من صميم أفئدتهم أن ينفد الزاد وينفذ البارود وتتحطم الأسلحة جميعاً، فأن هذا وحده كفيل بأن يقنع الحاكم العنيد بأن كل أمل قد ضاع، وبأنه لابد من التسليم حقناً للدماء.

وكان بين الأسرى ثلاث نساء: واحدة تلازم شيخاً مسناً وتعني بتلقيمه الطعام وتناديه "يا أبي"، وأخرى في العقد الخامس من العمر ترمق بأنظار ملؤها الحنان المرأة الثالثة، وهي ابنتها التي يبدو أنها في نحو الخامسة والعشرين.

أما الباقون، فأنهم رجال، بينهم الشيخ والكهل والشباب. والحديث يدور بينهم جميعاً همساً وباللغة التركية، وهي لغة قومهم. أن أولئك الأسرى من الأتراك ساقهم "فرسان القديس يوحنا" إلى جزيرة رودس بعد معركة بحرية استولى فيها الفرسان على سفينة تركية كأن أولئك الأتراك على ظهرها؟

وفي الجزيرة التي يملكها الفرسان ظل الأسرى أحراراً يتنقلون من مكان إلى مكان داخل الأسوار، على أن يذهبوا في الليل إلى السجن الذي جعل مسكناً لهم في مربط الخيل.

وفي تلك الليلة التي اجتمعوا فيها حول الخبز الجاف والزيتون، كان حديثه مشبعاً بالأمل والرجاء .. فإن الجزيرة قد حوصرت، ونزل الجنود الأتراك على سواحلها، وضربوا نطاقاً حول العاصمة المحصنة، وسوف يقتحمون أسوارها عنوة آجلاً أو عاجلاً، ويعيدون إلى الأسرى حريتهم، ويسوقون أمامهم الفرسان إلى الأسر بدورهم.

ولكن، أليس أمامهم واجب تفرضه عليهم قوميتهم ويفرضه عليهم دينهم نحو أولئك الذين يحاصرون الموقع الحصين؟ نعم، أن عليهم واجباً وهو أن يساهموا في اسقاط الحصن في نطاق قدرتهم وما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وهذا ما قرروا الأقدام عليه...

وكانت النساء الثلاث أشد اندفاعاً من الرجال في الحماسة والالحاح وقالت المرأة الشابة في نهاية الحديث، وهي تشير إلى الجهة التي تكدسن فيها علف الخيل أكواماً:

- ليعمل كل منا ما في وسعه، أما أنا، فإنني سأفاجئكم بشيء لا يخطر الآن ببالكم!

***

في تلك الليلة ذاتها، وعلى مسافة قريبة من مربط الخيل، في حجرة تشرف على مساحة فسيحة داخل دار واسعة الأرجاء، جلست سيدة حسناء في العقد الثالث من العمر، تتسم ملامحها برباطة الجأش والإرادة الصارمة، وحولها فريق من النساء ينظرون إليها نظرة احترام ممزوج بروح الطاعة والاستلام، ويوافقن على كل عبارة تصدر منها، مرددات بلا انقطاع: "نعم، يا سيدة برتا!.."

هي زوجة واحد من الفرسان أصحاب الجزيرة أصيب في بدء الحصار بسهم اخترق صدره، وفاضت روحه بين يدي زوجته، بعد أن جعلها تقسم، وأصابعها متشابكة بأصابعه، على أن تسهم مع نساء الجزيرة في الدفاع حتى الرمق الأخير، وأن لا تدع ولديه الطفلين يقعان أسيرين في أيدي الجنود الأتراك، وقد أقسمت "برتا" زوجة الفارس "كونراد" الألماني على أن تقاتل حتى تقتل، وعلى أن تقتل ولديها إذا تعذر عليها أن تكفل لهما حياة حرة في مقبل الأيام.

وأقرتها النساء الأخريات على أن الواجب نحو الوطن والعشيرة، يقضي عليهن جميعاً بأن يخرجن إلى الأسوار مع الرجال، وألا تبقى امرأة واحدة في رودس قابعة في عقر دارهما، على حين الموت يحصد الآباء والأزواج والأبناء.

وشكرتهن برتا على موقفهن النبيل، وختمت حديثها قائلة وهي تشير إلى الطفلين:

"لتعمل كل منا ما في وسعها، أما أنا فأنني سأفاجئكم بشيء لا يخطر الآن ببالكن!"

***

مات السلطان العثماني سليم الأول في سنة ١٥٢٠ للميلاد، الموافقة لسنة ٩٢٦ للهجرة تاركاً لابنه سليمان الثاني مهمة انجاز الفتوحات التي بدأ بها، وفي مقدمتها فتح جزيرة رودس، وضمها إلى أملاك الدولة الشاسعة. وكان سليمان في الخامسة والعشرين من العمر لما خلف أباه على عرش آل عثمان.

راح السلطان الجديد بعد العدة لمهاجمة الجزيرة، التي كان فرسان القديس يوحنا قد حصدوها وجلبوا اليها الإمداد والمؤن والذخائر استعداداً لليوم العصيب الذي كانوا ينتظرونه، وكان يقود الفرسان ويحكم الجزيرة في تلك المرحلة الحاسمة الشيخ "فيلييه دي ليل ادام" الذي دون اسمه، –مثل خصمه "سليمان الثاني القانوني"– في سجل الخالدين...

أمر قائد الفرسان رجاله وسكان الجزيرة جميعاً بالاعتصام داخل أسوار العاصمة "رودس"، وهدم القرى الواقعة خارج الأسوار، بما فيها من بيوت وكنائس، وحرق ما لا يمكن أخذه من محصولات الأرض، حتى لا يترك لعدوه شيئاً يقيده في حصار المدينة.

واستعان بأشهر مهندسي العصر "مرتينانج" الفرنسي لتقوية الأسوار

والأبراج بحجارة البيوت والكنائس التي هدمت. وتمكن من حشد ستة آلاف مقاتل للدفاع عن المدينة فضلاً على القادرين على حمل السلاح من السكان رجالاً ونساءً.

وفي السادس والعشرين من شهر يونيو سنة ١٥٢٢ وصلت أمام الجزيرة عمارة عثمانية قوامها أربعمائة سفينة، وفي الثامن والعشرين من شهر يوليو، وصل السلطان سليمان نفسه، وكان الجيش العثماني مؤلفاً من مائة وخمسين ألف رجل، ولم يكن ذلك العدد بكثير، في رأيي السلطان بالنظر الى مركز الجزيرة، ومناعة أسوار العاصمة.

ونزل الجيش إلى الساحل، وطوقت المدينة من البر ومن البحر في آن معاً.

ونشب القتال في الرابع من شهر سبتمبر. وظل حامي الوطيس أربعة شهور كاملة، فاستبسل الفرسان والسكان في الدفاع، واستأسد العثمانيون في الهجوم، وأقدم الفريقان على ساسة من أعمال البطولة أقرب الى الأساطير!

***

رسم الأسرى العثمانيون خطتهم، ووضعوها بلا ابطاء في موضع التنفيذ، والخطة ترمي الى تخريب، ما يمكن تخريبه، وتعطيل ما يمكن تعطيله، وإخفاء ما يمكن اخفاؤه من وسائل الدفاع وأدوات القتال.

وانصرف كل منهم، الرجال والنساء، إلى القيام بالمهمة التي ألقيت على عاتقه، فاختفت تباعاً كميات من الأسلحة، وعطلت كميات أخرى،

وتسرب التخريب إلى الأجهزة المنصوبة على الأسوار بل وإلى الأسوار نفسها، وتعذر على الفرسان تعليل ذلك كله أو معرفة أسبابه!!

أ ما الفتاة التي وعدت رفاقها بأنها ستفاجئهم بشيء لا يخطر ببالهم، فقد اعتزمت اضرام النار في أكوام العلف، بعد أن رتبتها خفية بطريقة تؤدي إلى امتداد اللهب واتصاله بأحد مستودعات البارود، وهو واقع خلف جدران المعتقل، وكانت الفتاة قد ادركت مبلغ الخطأ الذي وقع فيه الفرسان بوضع علف الخيل على مقربة من مخزن للبارود، وعولت على استغلال هذا الخطأ، بإضرام النار في العلف ونسف البارود وحرمان الفرسان استعماله في الدفاع، ولكن الحرس كانوا يقظين، لسوء حظها، فقد ادركوها قبل أن تنجز مهمتها، وتمكنوا من اخماد النار، وقبضوا على الفتاة ثم على رفاقها جميعاً، وأعدموهم دفعة واحدة بعد أن أذاقوهم أبشع ألوان العذاب...

واستطاعت أم الفتاة أن تفلت، ونجت بنفسها، مع واحد من الأسرى، وبالرغم مما حل بالأخريات فقد قرر الاثنان مواصلة أعمال التخريب، ومحاولة إخطار الجيش المحاصر بأن حالة المحصورين تدعوا إلى اليأس، وأن على المحاصرين أن يشددوا الحصار ولا يقبلوا مهادنة.

وفي ظلام الليل، جعلت المرأة والرجل يرشقان سهاماً من فوق الأسوار ناحية العثمانيين، وقد ربطا في كل سهم منها ورقة كتب عليها أن البارود قد نفد عند الفرسان أو كاد، وأن وسائل دفاعهم لا تساعدهم على الصمود أكثر من أيام معدودات...

ولم يكن حظ المرأة والرجل أحسن من حظ رفاقهما الآخرين، فقد فاجأهما الحراس أيضاً، وعثروا على السهام والأوراق المخطوطة، وكان ذلك الدليل كافياً لتعذيب الأسيرين وقتلهما شر قتلة.

ولحقت المرأة الثالثة بالاثنتين اللتين أعدمتا قبلها، ولحق الرجل بالرفاق الذين سبقوه.

***

وفي المرحلة الأخيرة من مراحل ذلك الحصار الرهيب، نفذت نساء ورودس أيضاً ما كن قد اعتزمته بتحريض من برتا زوجة كونراد الألماني فقد خرجن من بيوتهن ونزلن إلى الميدان، يشاركن الرجال في الدفاع. عن الأسوار والقاء الزيت المغلي من الأبراج على المحاصرين واصلاح الأسلحة المفلولة، ومواساة الجرحى، وغير ذلك مما قضت به الظروف الحرجة..

ولكن تضحيات النساء لم تفد المدينة المحاصرة أكثر من تضحيات الرجال. فإن ما أبداه الفرسان والسكان من شجاعة واقدام، كان من شأنه أن يؤخر سقوط المدينة بضعة أيام أو بضعة أسابيع، لا أن ينقذها من السقوط.

وفي أواسط شهر ديسمبر ١٥٢٢، أصدر السلطان أمره الي جيشه بمواصلة الهجوم على الأسوار ليلاً ونهاراً بلا انقطاع، مهما تكن الخسائر ومهما تكن شدة الدفاع، فشهدت أرضي تلك الجزيرة المعروفة بجزيرة "الورود" مجزرة بشرية هائلة، نزع المتناحرون فيها كل أثر للرحمة أو للشفقة من قلوبهم.

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر ١٥٢٢، دعت برتا البقية الباقية من النساء إلى الالتفاف حولها، وصاحت بهن قائلة:

- لن أعود اليوم حية إلى بيتي، ولن يقع ولداي أسيرين في أيدي العثمانيين، وسأكون بارة بالقسم الذي قطعته لزوجي قبل موته: أما انتن، فعلى كل منكن أن تختار لنفسها ولأبنائها المصير الذي تريد!

وانطلقت برتا إلى الأسوار ومعها الطفلان البريئان، وظلت تقاتل والنساء من حولها طول النهار وطول الليل .. و كانت الأقدار قد حددت في صفحاتها تلك الليلة واليوم الذي يليها ختاماً لتاريخ رودس كدولة مستقلة، فقد اقتحم العثمانيون الأسوار في وثبة رائعة، وتدفقت جموعه من الثغرات التي أحدثنها مدفعيتهم، ودار قتال مرير في شوارع المدينة.

ورثيت برتا زوجة كونراد وهي تذبح طفليها بيدها، وتتركهما في أحد الأبراج جثتين هامدتين، ثم تشرع سيفها، وتندفع كالوحش الغاضب وسط الجميع الملتحمة بالسلاح الأبيض.

وغاصت في لجة من الدماء ومرت على جثتها الممزقة مئات الأقدام.

وهكذا، فاجأت المرأة التركية رفاقها بشيء لم يخطر ببالهم..

وفاجأت حسناء رودس رفيقاتها بشيء لم يخطر أيضاً ببالهن.

***

في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٥٢٢ للميلاد الموافقة لسنة ٩٢٨ للهجرة، سقطت جزيرة رودس في قبضة سليمان القانوني، فضمها إلى أملاك السلطنة العثمانية، وكان السلطان في السابعة والعشرون

من العمر، أما البطل "فيلبيه دي ليل آدام" الذي دافع عن جزيرته دفاع الأسود عن عرينها، فكان في الثامنة والخمسين وقد استقبله سليمان بالإكرام والإجلال، وتم الصلح بين الخصمين على تسليم رودس، وانسحاب الفرسان إلى جزيرة مالطة، حيث مات زعيمهم في سنة ١٥٣٤، وقد خسر العثمانيون في تلك المعركة وذلك الحصار مائة ألف من خيرة رجالهم.

الفهرس